مملكة الجنة

صورة الغلاف: من أثار الفنان العالمي فان جوخ

مملكة الجنة

رواية

أشرف توفيق

القاهرة

٢٠١٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

توفيق، أشرف.

مملكة الجنة/ أشرف توفيق.

القاهرة: مكتبة إيتراك، ٢٠١٠ ص ؛ سم

تدمك: ٣ ٢٠٦ ٣٨٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١- قصة

أ. العنوان

اسم الكتاب:	مملكة الجنة.
اسم المؤلف:	أشرف توفيق.
رقم الطبعة:	الأولى
السنة:	٢٠١٠
رقم الإيداع:	٢٠١٠/٣١٠٥
الترقيم الدولي:	٣ - ٢٠٦ - ٣٨٣ - ٩٧٧- ٩٧٨
اسم الناشر:	إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع
العنوان:	١٢ ش حسين كامل سليم ـ ألماظة ـ مصر الجديدة
المحافظة:	القاهرة
التليفون:	٢٤١٧٢٧٤٩
اسم المطبعة:	الدار الهندسية
العنوان:	زهراء المعادي – المنطقة الصناعية

١

أَصْبَحْتُ أمام مطعمٍ أعرِفُه ، بحثْتُ بِعَيْنَيَّ عن ركن بعينه ، كان المكان ممتلئًا بالنَّاس من كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ، شمال أفْرِيقْيا، لِبْنَان بعض أَهْل الْخَليج وكَثْرَة عِرَاقِيَّة وَسُورِيَّة... أَشْعُرُ في قِلَّةِ الْمِصْرِيِّين بِغُرْبَة وَتَوَتُّرٍ. لَكِنِّي تَذَكَّرْتُهَا فَشَعَرْتُ براحَة لا أعرف مَصْدَرَها ، كان وجودُها معي يجعلني أتحَدَّي غُمُوضَ الأماكن جمعتني بها دراسَةُ القانون، بعد أن سيطر القانونُ الْفرنْسي على منطقتنا - بما يُعْرفُ بِالقُوَّةِ النَّاعِمَة - قَدَرٌ نَاعِمُ الخُطَى فِي جامعَة ليون! جمعتْنا قليلا قاعات الدَّرس.. وكثيرًا الصُّدَف !! أنا فِي مِنحَةٍ دراسيَّة قصيرَة أبحث عن صحيح النَّص الْقانونيِّ (ظاهِره وباطنه) وهي فِي دراسَة مُعَادِلَة لِتَعملَ كَمحاميَّة بفرنسا، هِيَ تبحث عن مكامِنِ ضَعْفِ النَّصِّ وأنا أُقَدِّس النَّص ولا أَخرُج عليه بِحُجَّةِ ضَمَان النِّظام واستمرار حركَة المجتمع وهِيَ تتحايل عليه، تلاعِبُه لا مانع عندها من الإفْلات من قسوته، فهِيَ لها أيضًا مصالحُها، والغريبُ أنَّ النَّص يسعُنا ويعطِينا ولا يتمَلْمَل! ولسْنا إلا وَسَائِل لِيُجْرِيَ الْقَدرُ المشيئَةَ - مَنْ يُدانُ ومَن يُفلتُ.

الْمَكَان بِزجاجه الْملوَّنِ وبديكوره الْبسيط يُوحِي بأزمِنَةٍ أُسْطوريَّة مشربيَّات بالأَرَابِيسك الْمُتداخل، عَاشِق ومَعْشُوق، مشكاوات مُتناثِرَة هُنَا وهُنَاكَ، قُلَل فخَّاريَّة تخرج منها إضاءَة خَافِتَة تَتَلوَّن بلَوْن جَوْف الْفخَّار، فترى كل ألوان قوس قزح؛ الأحمر يتداخل بالأزرق والأصفر يطل من الأخضر، النِّساءُ كثيرات بجَمالِهِنَّ، وأناقَةِ مَلابِسِهِنَّ الْعَاريَةِ عفويَّة، جِلستُهُنَّ تُظْهِر مِن أفْخَاذِهِن أكثر بكثير مِمَّا تعوَّدْتُ، فتُعْطِي الْمكانَ مَذاقَ الْمُعاصَرَة! وكيف لا ونحن فِي فرنسا؟! ماذا حدث للذُّكور؟!

أغلب الْمَناضِد الَّتِي حولها فرنسيَّات بِدُون رجال! حَلَقَاتُ الدُّخَان من فَمِ الْفرنْسيَّات لها تداعِيَات خَاصَّة.

هل هذه الْمناضِد:

(جيتو خاص - أم أنَّ فرنسا تعرِف الْحَرَمْلِكَ؟!) بَاقِي النِّسَاءِ مِنَ الْجِنسيَّات الْعربيَّة مُرْتَبِكَات بين السُّفُورِ والْحِشْمة، مع تدرُّج مِزاجِيٍّ فيما يُظْهِرْنَ من الشَّعر، أَخَصْلَة تكفي؟ أم حِجَابٌ لا يُظْهِرُه ؟! أو إطْلاقُه على حُرِّيَّتِهِ لِلنَّسِيم ليقول آهاتٍ؟! على كل حال الْفُرجَةُ والْبَحْلقَةُ أكثرُ إثَارَة!

الْمَكَان بزُجاجِه الْمُلَوَّن وبديكوره الْبسِيط يُوحِي - كما قُلْت - بأزمنَةٍ أسْطوريَة، كِتَاب كولن ويلسون (جُذورُ الدَّافِع الجنسي) بين يَدَيْ فرنسيَّة فِي الثَّلاثِين يتجسَّد وهِيَ مُستغرِقَة فِي صفحاته، تتململ تركَتْ كِتابَها، عَيْناها ترمِيَان من الْمَجْهول إلَى الْمجهول!! النِّساءُ لا يَصْبِرنَ على الْقراءَة؟! غلاف مجلَّة لامرأةٍ عَارِيَة - فَرَشتْ رَمْلَ الْبحر ونامت.. وتغطَّت بالشَّمْس- إنَّها نَاعومي عارضَةُ الأزياء. فأيُّ زِيٍّ تَعْرِضُ وهِيَ "بلبوص"؟! مِشْكاوَات متناثرَة هُنَا وهُناكَ، عِبَارَة (w.c) فِي نهايَة مَمَرٍّ.

تذَكَّرْتُ ما قَاله طَهَ حُسيْن فِي روايته (أديب) عن فرنسا.. بلاد الجِنِّ والْملائكَة، ولكن هل تنزِل الْملائكَةُ فِي حُضورِ النِّساءِ ؟! أتذَكَّرُ أنِّي طرحتُ هَذَا السُّؤَالَ عَلَيْهَا من قَبْلُ، كُنَّا فِي (كان.. وَقْتَ مِهَرجَانِها السِّينِمَائي الشَّهير) مشْدُودٌ كنتُ لِلأُبَّهَةِ والْبَالو ودلال نجمات السِّينِمَا، والرُّجُولَة اللامِعَة لبعض الْمُمثِّلين الْعالَمِيِّين، والْمُوضات والْملابس الْجَذَّابَة.

فقلت: هو فِي كده!! أم هو السَّرَاب. سراب الْمُدن السَّافرَة.!؟

فرقَصتْ يمينا ويسارا في بنطلونها الجينز الضَّيِّق وهِيَ تقول

Quelle:surprise. ده في كده وكده ؟!.

بانت تضَاريسُها.. حسدتُ الجِينز المُمسك بنصفها الأسفل في إحكام تحسده عليه الأنظِمَة القمعيَّة!.. فجاء السُّؤَالُ الغَبي: هل تنزِل المَلائكَةُ في حُضور النِّساء ؟!.

تهكَّمت عليَّ بأنِّي جَمَل صحراوي!! وفي المُدن.. لا يوجد سراب!! فالمَلائكَة ترافق النِّساء، وأنَّ مريم العذراء كانت ترافقها المَلائكَة! وأنَّ الأنبياء أفضلُ من المَلائكَة، وكان لكلِّ امرأَة واحدَة، أكثر ؟

التوراَة تقول: إن النَّبي داود كان عنده ٩٩ امرأَة وكان مُستعدًّا أن يرسل ضابطًا عنده إلَى الحرب على الحُدود بعيدًا لِكَيْ يضم إليه زوجَة الضَّابط "أوريا الحثى" فيُكمِل مائَة امرأَة!!.

كنَّا قد اقتربنا من دار الخيالَة (السِّينما).. فلم أُعَلِّق على ردِّها المُفاجِئ والطويل، فلماذا لم أقل لها بأنَّ النَّبي داود عاتبه الله على عِشقِه المِئَوي ،لأنه نظر إلَى مُتَع جارِهِ، ولم يشكر على ما عنده فيظَلُّ السُّؤَال مَطْروحًا؟!.

هل لأنِّي أمسكت يدها وأخذت أعُدُّ الخَواتِم في أصابعها؟! أم لأني مثلُ النَّبي داود لم أكتف يوما بنعجة واحدة، فكيف سيتم عتابي أو عقابي وأنا ليس لي في الغرام إلا أقل من عُشْر داودَ ؟!.

٢

بَدَا فيلم " disclosune " وفيه: "امرأَة تُـرَاوِد مَرءُوسَـهَا فِي الْعَمَـلِ جِنْسِيًّا (ديمي مور).. وما أدْراك ما ديمي مور؟! فتُهَـدِّدُهُ بـأن لـم يفعـل ستَدَّعِي عليه التَّحَرُّش بِهَا حتَّى تصل بـه إلى المحـاكم؟! ويكـفي أن تقول - وبلا شهود - وتقضي تمامًا على مستقبله رغم أنها هي الْفاعـل لا الْمفعول به؟!".

سألتني ونحن بالسينما:.

- ما هو التحرش؟ أهُنَاكَ شيء عنه فِي الْقانون الْمصري؟.
- قلتُ: لم نعرفْه بَعدُ!.

(مايكل دوجلاس يخاف.. فالقانون فِي هذه الْجريمَة يحـمي الْمـرأَة فقط؟ مع أن أهم ما فِي الْقانون فكرَة (التجريد) أي أن يُطبَّـق على الكافَّة؛ الوزير والغفير، الرَّجل والْمرأَة).

Vive l'amour.. هل يُقاوِم أحدٌ (ديمي مور) ؟!.

- قالت: بل من الَّتِي لا تراود (مايكل دوجلاس) عن نفسه ؟!.

(الْقانونُ هُنَا لا يقبل الْقولَ بالتحرش الْجنسي من رجل ضد امرأَة حتَّى ولو وقع من رئيسته فِي الْعمل ؟! وديـمي مـور لا تهـدأ إن لـم يفعل ما تأمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين.. ولكن الْقانون يقبل بسهولَة الْعكس.. التحرُّش الْجِنسي مِن رجل ضدَّ امرأَة؟!).

- قلتُ: الْباب الرَّابِع من قانون الْعقوبـات عنـدنا مـن الْمـواد: ٢٦٧ حتَّى ٢٧٩. لم يذكر التَّحَرُّش.. أعندكم أنتم شيء؟.
- قالت: فِي كتاب الْمُلاطفَة والْمُدَاعبَة.. وليْس فِي قانون الْمَغْرب !!

(مايكل دوجلاس يعرض عَلَيْهَا مشاكل الْعمل، فتطلب منَـة أن يحل مشكلتها معه؟! يحدثها عـن الأسـواق الْجديـدَة، فتقـول له: الْمُهِـمَ اللِّقَاءَات الْقَادِمَة! يُقدِّم التَّقْريـر الشَّـهْري فتطْلُـب منـه تَقْريـرًا عـن تَفاصِيل وَسَامته شِبرا.. شِبرا، سَاقًا، وَوَجهًا، وَظَهرًا! حتَّى مِشـيَته تقـول عنها أنها تَرِنُّ بقلبها- إنَّها تُرَدِّد أُغنيَة أُمّ كُلْثوم "وَاثِـقُ الْخُطْـوَةِ يَمْشِي- مَلَكًا" بألفـاظ جديـدَة!- يُقَـدِّم اسْـتِقَالته فَـلا تَقْبَـلُ مِنْـه إلا الْـورُودَ والْقُبلات!).

ضحكنا. ما نراه على الشَّاشَة لا هو اغتصـاب، ولا هتـك عـرض، ولا حتى خدش حياء؟!.

همست: إنها امرأَة تبحث عـن موافقَـة رجـل.. عشـق امـرأَة، لا تنس أنها مديرَة الْمكان، هكذا يفعل نساء بُرْج الْحَمَل!!.

قلتُ: ولكن بوحشيَّة الْحضارَة الْغربيَّة ؟!.

استوقفتني.. كأفوكاتو.. "مُحاميَّة" شاطرَة.

- أتعاقبون على خدش حياء رجل ؟!.
- لا. للأسف؟! م٣٠٦ مكررا من الْقانون الْمِصْري تعاقب الرجل على خدش حياء الأنثى.. وتحبسه شهرا، خدش حياء رجل تعبير قانوني جديد.
- أَهِذا لا تمسك يدي ؟!
- أَلا تتَّهِميني بالتَّحَرُّش ؟!.
- نساء برج السَّرطَان يؤمِنَّ بحاسَّة اللَّمس!.

(ديمي مور. وما أدراك ما ديمي مور، لا تقبل إلا الْورود والقبلات! تطلبه بمكتبها، وتطلب منه أن يحدثها عـن أيَّـام مراهقته،تطالبـة أن يعانقها.. فقبلَةٌ منه تكفي اليوم !).

٣

ضوء أزرق وديع يخرج من نمانم النُّحاس الموضوعَة بالْمَكَان بتلقائيَّة تُلْقي هُنَا.. وهُنَاكَ.. أنوارًا خَفيفَة مُرْتجفَة وظِلالًا شفَّافَة، هُنَاكَ امتِدَاد تلقائيٌّ لِنَظَري ينتهي عند بِركَة مُتَّسعَة تتوسَّط الْمَكَان ذكَّرتْني بيوم غازلتُها بأنَّ عيْنَيْها بلَوْن بُحُور الْجنَة !!.

استفسرت ؟!.. كانت عيناها عسليَّة وبالجنَّة بُحَورٌ من عسل، فَهْقَهت وأشارت إِلَى شفتها السفلى.. هل أجد فيها علامَة خروج آدم من الْجَنَّة؟!.. لم أفهم ؟!.

فشرَحتْ لي أَنَّهم فِي الْمغرب يعتبرون (الأشرم) من النِّساء ، ذات الشفَة الْمشقوقَة امرأَة ساخِنَة لا تهدأ رغبتها ؟! وأنَّها قامت بعمليَّة تجميل اتِّقَاء للشُّبُهات!! ولكنها تركت ندبَة بشفتها السفلى.

وجدتُ نفْسِي أُقَبِّلُها. ركَّزْت على الشَّفَة السُّفلي عند مكان النَّدبَة أرغب أن تتحقق فتنَة الأسطورَة! كنت أدور فِي فلكها مجذوبًا بقوَّة هائلَة، كأنَّها الشَّمْسُ وكأنني الأرض... اعتدلت فِي خجل، وأنا أبتسم.

قلت: كنت فِي الْجَنَّة أنا مثل أبي الأوَّل آدم.. إنها جينات الْغوايَة!!

ابْتَسمتْ وهي تُغَمْغِم بالفرنسيَّة:

أنا لست بقايا الْجَنَّة، أنا بقايا الْحريم، كانت بوَّابَة بيتنا تفصل حريم النِّساء عن غرباء الشارع، وكان شرف أبي مرتبطًا بهذا الْفصل كان بوسع الأولاد عبور الْبوَّابَة بصعوبَة أما النِّساء الْبالغات فلا؟! حَلِمَ جميع النِّساء أن يَهِمْنَ على وجوههن بحرِّيَّة فِي الشَّوارع، وكانت حكايَة

"المْرأَة المْجنحَة" الَّتِي تستطيع أن تطير من الْفناء متى شاءت كلما رُوِيَت فِي الْمغرب.. كانت النِّساء يُعلِّقْن أطراف قفاطينهن بزَنَانِيرِهن ويأخذن فِي الرَّقْص.. وقد مددن بين أذرعهن وكأنهن ينوين أن يطرن! وقد بذرت ابنَة عمِّي "نوَّارَة" الَّتِي بلغت السَّابعَة عشرَة الاضطراب فِي ذهني عندما أَفْلَحَتْ فِي إيهامي أنَّ للنِّساء أجنحَةً غير منظورَة، وأنَّ أَجْنحتي ستطلع عندما أكبر!!.

هَذَا ما استطعت عليَه صبرًا من فرنسيَّتِها الْجميلَة.. أما باقي ما قالتْهُ كان غريبا وأخذتُه إجمالا ؟! وكان يدور حول عدم اعتقادها بأن تكون الْجنَّة مخلوقَة الآن! قالت بل الله يُنشِئها يوم الْقيامَة، خَلْقُ الْجَنَّة قبْلَ الْجَزَاء عَبَثٌ غير واقِع على وجه الْحكمَة؟!(1).

---

(١) فيما بعد تبين لي أن ما توصلت له بعفويَة الْمنطق هو رأي الْمعتزلَة والْمُرجئَة "من الفِرق الإسلاميَّة".كما تبين لي أشياء أخرى؟! فقد قال أبو الْقاسم الرَّاغب في تفسيره: واختُلِف في الْجنَّة الَّتِي أُسكِنَها آدم فقال بعض الْمتكلمين، كان بستانًا جعله الله تعالى له امتحانًا ولم تكن جنَّة الْمأوى لهما، وجعلها دار ابتلاء وليست هيَ جنَة الخلد الَّتِي جعلها دار جزاء، ومن قال بهذا اختلفوا على قولين: (أحدهما) أنها فِي السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الْحسن.اما الراى (الثاني) أنها فِي الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشَّجرَة الَّتِي نُهيَا عنها دون غيرها من الثِّمار. كما قال أبو الْقاسم الْبلخي وأبو مسلم الأصبهاني: هذه الْجنَّة في الأرض وحملوا الإهباط على الانتقال من بقعَة إلَى أخرى كما في قوله (اهبطوا مصرًا) واحتجَّا عليه برأي (آخر) وهو قول الْجبائي: إن تلك الْجنَّة كانت في السماء السابعَة! (والقول الأخير) وهو قول الْجمهور: إن هذه الْجنَّة هِي دار الثواب والخلود بعد الْحساب يوم الْقيامَة.

جاء النَّادِل فجأَة وبدون طلبي.. ارتبكتُ، حسبتُه من غِلمان الْوَالي فَمَلابِسُه الْمُزَرْكَشَة بين التُّركي والإيراني- لزوم إيحاء الْمَكَان - توحي بحكايات ألْف ليلَة اعتقدت معها بأنه سيبدأ بـ "أيها الزبون السَّعيد ذو الْمَقام الْعَالي والذَّوْق الرَّشيد" حركاته مهلَة، ابتسامته لدنَة، انحناءته أنثويَة، كلمني في نعومَة، فطلبت الْعَشاء والتَّبيذ بسرعَة دون أن أنظر إِلَى الْقائمَة الَّتِي معه! قد يَكُون ذَلِكَ بسبب اللُّغَة.

قل بدون تفصيل وبدقَة حتَّى لا يجادلك أحد، أنت تتحدَّث الْفرنسيَّة، ولكن لا تعرف كيف تسمعها جيِّدًا - هذه نصائح أهلي والأصدقاء في الْقاهرَة.

أَسْمع رقرقَة الْمياه الَّتِي كانت بفعل موتور صغير بالحوض.. حوض السمك الْمُلَوَّن حيث أجلس.. سجائري (مينتول) بلونها الأخضر- بمكانها على الْمِنْضَدَة بجِوَار شَنْطَتِي الصَّغِيرَة، الَّتِي بِهَا أوراقي والْبسبور. أشعلت واحدَة.. قلل فخاريَة تخرج منها إضاءَة خافتَة تتلَوَّن بلَوْن جوف الْفُخَّار...اتَّجَهْت إِلَى الـ (w.c) في نهايَة الْمَمَرِّ.

- حادي الأرواح إِلَى بلاد الأفراح - محمد بن أبي بكر الزرعي - باب بيان وجود الْجنَة - ص١١ وما بعدها - مكتبَة الْمتنبي- القاهرَة - ١٩٥٥.

٤

فِي منتصف المْمر الضَّيِّق قابلت المْرأة الْفَرَنْسِيَّة الَّتِي كانت تقرأ كتاب: كولن ويلسون نظرت إلي فِي وُدٍّ كأَنَّهَا تَعْرِفني! أكانت تتلصَّص أَيضًا؟ أم شَعَرَتْ ببحلقَتِي على رجلَيْها الْمُتَدَّتيْن فوق الْمِنضدَة، مُتجاهلَة أنها ترتدي "تيور" بجيب قصيرا! أهي علاقَة تلصُّص خفيَّة. أم أن أوتار الْوجود تجود بالتَّغَم المْكنون، واللَّذَّة تسطع حتَّى تُعانِقَ الْجميع ؟!.. كانت تريد أن تُخْرِجَ شيئًا من حقيبتها وفي نفس الْوقت تضع كتابها.. ارتبكت، كادت شنطتها تفرغ ما فيها على فسيفساء الأرض، تدخَّلتُ فتَمَّ تدارُك الأمْرِ.

قالتْ: Merci.

أخرجت فوط الْحَفَاضات النِّسائيَّة؟! حاولت أن أقويَ اللغَةَ الْفَرَنْسِيَّة ببعض الْغزل معها، ضحكتْ، علقت ببلاهَة بقصد جذب أطراف الْحديث، وانتباهها أيضا - بالطريقَة إياها- لدى المْصريين؟!.

- ما السِّرّ في الْحَفَاضات، ألا يُوجَد ورق تواليت بالحَمَّام، إنِّي قد أحتاج لواحدَة إذا كان الأمر كذلك؟.
- 'quelle que chose pour la femme' حاجَة حريمي كده ؟!.
- أيحدث في فرنسا نفس الشَّيْء للنساء؟! كنت أعتقد أنَّ الْفرنسيات من الْحُورِيَّات!.
- ومن هن؟.

- النِّساء الْمَوْهوبات من الـرَّب فِي الْجَنَّـة للرِّجـال الطَّيِّبـين، يُعْطـى الرَّجلُ الصالح "حوريَّتَان". اعتقدتُ أنَّ هُنَـاكَ مـا جعـل بعضـهن ينزل فرنسا حين رأيتك؟!
- ارْحَمْني أنا أنزف.
- الْحُوريَّات لا يستخدمن الْحفاضات النِّسَـائِيَّة – فهـنَّ لا يحضـن- فهل حوريات فرنسا ضد النَّص؟!
- أيها الشَّبق اللحوح.. إني أنزِف.

تركتْ شنطتها بين أحضاني؟! دخلَتِ الْحَمَّامَ مُسرِعَةً بِفُوَط الْحَفَّاضَات النِّسَائِيَّة.. دخلتُ الْحَمَّام الْمجاور الخاص بالرِّجال - فحَتَّى فرنسا تفَضِّل الْفصل فِي هَذَا الشَّأن !! ارتبكت قليلا فعلى كتفي شنطَة حريمي حمراء مكتوب عليها بالفَرنْسِيَّة: لماذا لا تفعل ما أراه فِي عينيك..؟؟.

Pourquoi tu ne faites pas quel est dans votre yeux ?

أَيَدْخُلُ رَجل حمَّام الرِّجال بهذا الْغرض!

٥

كان عُنوان الْمُحاضرَة: (أهميَّة نصوص الرَّأفَة وإيقاف التَّنفيذ فِي التَّشريع الْعِقَابِي).. تحدثت باختصار عن نص م١٧ في مصر وكذا م٥٥ فِي إيقاف التَّنْفيذ. كانت تتدخل وتسعفني فتشرح ما أقوله إذا تطلب الأمر الإطالَة.. كانت لساني فِي غربتي ففرنسيتي عرجاء.

عَلَّق الْمُحاضر (جارودي مارسل): ليس الأمر متروك للقاضي فالْمحامي يجب أن يحثه فِي مرافعته ويتمسك بذلك فِي مُذَكِّرَة طَلَباتِه فالسُّلطَة التقديريَة[1] للقاضي هُنَا سُلطَة وَقائِع لا سُلْطَة مُطلَقَة. ولِذا فالعمل بالعدالَة يقتضي معرفَة علم الاجتماع وعلم النَّفس، وليس الْقانون وحده. فالأوراق الْجنائيَّة عندنا بِهَا خانَة لدراسَة الْحالَة تتحدث عن ظروف الْجاني[2] بيئته، معتقداته فهِيَ تَهْتمُّ به قبل وقوع الْجريمَة، فنحن لا نشعر بغليان الْماء إلا فِي درجَة ١٠٠ فِي حين أن الْغليان قادم

---

(١) يجوز في مواد الْجنايات إذا اقتضت أحوال الْجريمَة الْمقامَة من أجلها الدعوى الْعموميَة رأفَة الْقضاة تبديل الْعقوبَة على الْوجه الآتي: عقوبَة الإعدام بعقوبَة الأشغال الشَّاقَة الْمؤبدَة أو الْمؤقتَة ، عقوبَة الأشغال الشَّاقَة الْمؤبدَة بعقوبَة الأشغال الشَّاقَة الْمؤقتَة أو السجن ، عقوبَة الأشغال الشَّاقَة الْمؤقتَة بعقوبَة السجن أو الْحبس الذي لا يجوز أن ينقص عن ستَة شهور ، عقوبَة السجن بعقوبَة الْحبس الَّتي لا يجوز أن تنقص عن ثلاثَة شهور.

(٢) يجوز للمحكمَة عند الْحكم في جنايَة أو جنحَة بالغرامَة أو بالحبس مدَة لا تزيد على سنَة أن تأمر في نفس الْحكم بإيقاف تنفيذ الْعقوبَة إذا رأت من أخلاق الْمحكوم عليه أو ماضيه أو سنه أو الظروف الَّتي ارتكب فيها الْجريمَة ما يبعث على الاعتقاد بأنه لن يعود إلَى مخالفَة الْقانون ويجب أن تبين في الْحكم أسباب إيقاف التَّنفيذ ، ويجوز أن يجعل الإيقاف شاملًا لأيَة عقوبَة تبعية ولجميع الآثار الْجنائيَّة الْمترتبة على الْحكم.

مُنْذُ درجَة ٩٨ ولو لأتفه الأسباب.؟؟ هل قرأ أحد روايَة (الغريب) لكامي؟.

إنّ الْقتل يأتي من مجرد انعكاس ضوء الشّمْس بقوَّة على عيني بطل الرِّوَايَة، إنه فِي حالَة غليان لا يعرفها النَّص، لأن النَّص الْقَانُونِي يتحدث عند وقوع الْفعل لا قبله ولا بعده،القضاء الواقف "المحامى" هو الذى يتحدث عن ذلك.هذا دورة.

بغير ذَلِكَ تُصبح أعمال الرَّأفَة ووقف التّنفيذ والاختيار بين الْحَدِّ الأقصى والأدنى للعقوبَة درب من التّخمين ؟!.

أثناء ذَلِكَ تركت الدَّرْس، قالت لِي وهِيَ تنصرف:

" Quelle que chose pour la femme" حاجَة حريمي كده!

قالتها بنفس طريقَة الْفَرَنْسِيَّة. فعدت لها. الإسقاطات تأخذني لِدُنْياها؟!

كانت شُعلَة من سعادَة تحظى بحريَّة، وتذعن لسنن فوق مَدَاركي، فأنا رماد من وجوم، وهِيَ نغم سحري يستقر فِي الأعماق يُغرِّد دوما بسهولَة الْحياَة.

٦

تنبَّهْت أثناء الْعَشَاء إِلَى أَنَّ نصف زجاجَة النَّبيذِ على وشك الانتهاء فاسْتعمَلْتُ الْجرس الصَّغِير الْموجود بجوار طفايَة التبغ لنداء النَّادل، تحرَّكت الكورَة الْمعدنيَّة بداخله.. حركَة بندوليَّة اصطدمت بالحوافِّ فصَدَرَ صوتٌ أحضر النَّادلَ، وألهب الذكريات..

علَّمَتْني كيف أُحب النَّبيذَ وكيف أشربه؟ ومتى يَكُون أحمر. ومتى يَكُون أبيض؟ احترمت أني لا أشرب الخمور- ووجدت هوايا فِي فتوى لأبي حنيفَة بعدم تحريم النَّبيذ؟!.

وجدتُ الْفَرَنْسِيَّة عند رأسي.. جذبتني.

قالت: أنت.. يا أنت.... انتبهتُ.

هل بالتبير بُقَع ظاهرَة فِي الخلف ؟

الْتَفَتُّ أنظر.. وكانت مستمرَة فِي الكلام بعصبيَّة.. وهِيَ تُدير لِي نفسها فأراها من الخلف، عجيزَتُها كورَة تنضح بنضج وأنوثَة يا لها من عجيزَة فرنسيَة جمعت بين الْعجرفَة واللُّطف، يكاد الْغريب مثلي أن يحس بطَرَاوتِها وشِدَّتها معا بالنَّظر الْمُجَرَّد. عذرتُ فِي هَذَا الْوقت اللُّوطيِّين، فهل هُم مَن يَأْتُون الرِّجَال دون النِّساء – أم هم من يأتون النِّساء مِن هَذَا الْمَوْضِع؟! أَطلتُ النَّظرَ وقد بدا أنَّ الأمر جَدِير بالْبحث فِي فرنسا.. أليست أرض النُّور، والحرِّيَّات !!

استدارت معتدلَة.. كانت حانِقَة ومُتَبرِّمة.

عَطَّلتْني.حاولت مُعالجَة الأمر بالْماء فتعقَّد الأمر أكثر، أبك شَبَق؟! عندي موعد مُهِم مَعَ "برجريت باردو" بعد دقائق..!

- برجريت باردو (ب.ب) الْمُمثِّلَة الشَّهِيرَة ؟!!

- برجريت باردو أستاذ علم الاجتماع الْجنائي..إنها تشرف على بحث لِي.

- إنِّي أعرفها، ودرَّست لِي فِي جامعَة (ليون)، إنها فِي الخمسين من الْعمر، بدينَة، جادَّة، درسها تقليدي بالسبورَة والطباشير، تَرُصُّ الْمعلومات بتدفُّق وبدقَّة.

- هي بشحمها ولحمها..عليك تعطيلُها حتَّى أحضر. فلا بد أن أُغيِّر ملابسي، عَوِّضْ شَبَقَك بذوقك !!.

نزعت شنطتها من الْمنضدَة، وانصرفَتْ حانقَة، بقامَتِها الهَيفاء وأناقتها الْباريسيَّة، كانت فِي عينيها نظرَة تلقي إلي الظمأ، والتأفف – معا – شعرت بخجل.

استعملتُ الْجرس الصَّغِير الْموجود بجوار طفَّايَة التَّبغ لنداء النَّادِل تَحَرَّكَت الْكورة الْمعدنيَة بداخله حركَة بندوليَّة اصطدمت بالحوافِّ فصَدَرَ صوتًا.. ولكن لم يحضر النَّادل!!.

٧

كانت هُنَاكَ عجوز مكرمشَة الْوجه عند مدخل الْمَكَان.. عند الْقُلل الْفُخَّارِيَّة الَّتِي تخرج منها إضاءَة خافتَة تتلَوَّن بلَوْن جوف الْفخار فترى كُلَّ ألوان قوس قزح.

كانت "باردو" واقفَة شدَّت شعْرَها للخلف، مُتأنِّقَة، ولكن فِي حشمَة، تضع إيشارب مزركش حول رقبتها يبدو موضة. ولكن أدركت أنها خدعَة لمدارَاة تجاعيد السِّنين حول رقبتها.. استقبلتُها بترحيب الْمصرِيِّين، أفهمتها بأن تلميذتها على وصول، وأني تلميذها فِي جامعَة ليون من طلبَة الْمنح الْفَرَنْسِيَّة الْمَجَّانيَّة، ويُسعدني أن تكون على منضدتي لحين حضور تلميذتها الْفَرَنْسِيَّة، استغربت من استعمالي كلمَة تلميذَة على امرأَة ناضجَة فِي الثَّلاثِين؟! سأَلَتْ أسئلَة تقريريَّة عن علاقتي بها؟ وعني؟ وضَحِكَت على إجاباتي السَّاذجَة عندما شرحتُ باختصار ظروف معرفتي بِهَا، كانت مندهشَة من أني لا أعرف حتَّى اسمها؟! ولكنها استسلمت للمقادير، ولأسئلتي الْمبطنَة لحالَة هزَّة الْقلب، والإسقاطات الْمُروِّعَة داخلي وكَأَنَّها تعلم مغزى وخطورَة ذَلِكَ على الْوجود! هِيَ لها خبرَة بكيف يتصرف طلبَة الْمنح الْمَجَّانيَّة فِي فرنسا عند بدايَة الأمر.

- سألتها: (التَّحَرُّش الْجِنْسِي)؟

- قالت: وفى عيونها ارتداد الثِّقَة بدلا من الْحيرَة.. التَّحَرُّش موجود فِي مدرسَة الْقانون السكسوني وخَاصَّة أمريكا، ولكن فِي فرنسا التَّصوص كافيَة.

تلعثَمتُ فرنسيتي. وهِيَ تنتظر مناقشَة مطولَة.

- قلت: je veux connaitre beaucoup ، باختصار. لنعرف المزيد.

- قالت- التَّحَرُّش يمكن نقله من القانون الجِنَائِي إلَى القَوَانِين ذات الطَّابع الإداري.. ولذا قررت وزيرَة المرأة فِي أَلْمانيا جَعْل هَذَا القانون (ضمن قوانين العمل والوظيفَة) وبالتَّالِي فالعقوبَة فيه تأديبيَة، لا جِنَائِيَّة. وبالطَّبْع هَذَا عكس الوضع فِي أَمْرِيكَا.. ولكنه التدبير المقدم للأمر فِي فرنسا.. فالأمر لم يُحْسَم عندنا؟!.

في أَلْمانيا، القانون موجود باسم الوزيرَة (إنجلا مركل) وهو ينص على التَحَرُّش الجِنْسِي بمكان العمل وهو: كُل تصرف جِنْسِي مُتَعَمَّد من شأنه أن يجرح مشاعر العاملات فِي مكان العمل. (لاحِظ أنه لم ينص على جرح مشاعر العامِلين الذُّكور- فهو تمييز) إذا ما ترتب عليه رفض أو تأفُّف أو خجل النِّساء بالمُؤَسَّسَة.. مثل: الأقوال الجِنْسِيَّة، المطالبَة بالقيام بتصرفات جنسيَة، الجنس الخفيف متمثلا فِي اللَّمَسات الجَسديَّة، الملاحظات المحتويَة على معان جِنْسِيَّة: كعرْض أو إحضار صور عاريَة بالمكتب أو مكان العمل، أو استخدام التليفون الخاص بالعمل فِي علاقات شديدَة الخُصُوصِيَّة (جِنْسِيَّة).

كانت تقول بمُنْتَهى الاتزان ودون أن ترِفَّ عينيها- رغم اهتزاز نهداها الشامخين كمركز ملاحَة مستتر، كان له شأن فِي الْمَاضي فِي إرْشَاد سُفُن الذُّكُورَة الضَّالَّة فِي الْبَرِّ- أو تلاحظ وقع هَذَا الشرح على أعصابي.

- سألتُ - وكَيْف يعلم الْقانون كيف ترفض الْمرأَة ؟

- أجابتْ - الرَّفض فِي هَذَا الْقانون لا بد أنْ تُعَبِّر عنه الْمرأَة بشكل مادي، مثل: أن تتقدم بشكوى مكتوبَة، أو شفهيَّة لصاحب الْعمل، ويجب أن تكون محدَّدَة، أي أن تحدد الْفِعْل، ولا تكون شكواها عامَّة، وبعد ذَلِكَ يبقى على صاحب الْعمل أن يمنع هَذَا التَّحَرُّش بصورَة عاجِلَة خلال طرق يختار منها وهِيَ: النَّقل - لفت النَّظر الإنذار - التحويل إِلَى إدارَة أخرى..طرق الْعقاب الإداري وليس لرئيس الْعمل الْحَقُّ فِي غَضِّ الْبصر، أو عقد الصُّلح أو الْحِفْظ وإنما هذه الخيارات إجباريَّة.

- وماذا إذا رضيت الْمرأَة فِي أوَّل الأمر، ثم حدث ما يُعَكِّر الصَّفْو؟! أتصبح الْعقوبَة مُسلَّطَة على الرَّجل؟.

- هذه الشكوى تسقط إذا مر أكثر من ثلاثَة شهور على حدوثها حتَّى يستقيم الْعمل، ونبعد عن الْكيديَّة فِي الشَّكوى فهِيَ وإن كانت جريمَة إداريَّة فإنها تخضع للتقادم.

حضرت الْفَرَنْسِيَّة.. مَلْهُوجَة.. سلَّمَتْ على باردو دون أن تَشْكُرَني أو تُعيرَني اهتمامًا !! دَخَلتْ فِي الْحديث وهِيَ واقفَة تُسَوِّي شَعْرَها بأناملها وقد لاح إِبْطُهَا من فُرجَة الْقِطْعَة الْعُليا للتيير- نصف الْكم- تماما كالجيب الْمِيني الْمكمل له، تتحدث عن بحثها.. تنظر لِي وكأَنَّهَا تدرك سكرَة انتابتني، عينيها تقول لِي كفى فضولا؟!..

لها حاسَّة حدس تفوق حواسَّها الأساسية!!

الفَرَنْسِيَّة: اشتغلتُ على ما قاله "ويلسون" فِي كتابه. وانتهيْتُ إلَى وجود علاقَة بين الدَّافِع الجِنْسِي والْمَلابِس إذ إنها ممكن أن تقوم بدور المُثير، وأن ذَلِكَ أدى إلى تغيير ملابس الْغانيات على مرِّ العصور.

برجريت: هل قُمْتي بدراسَة مَيْدَانِيَّة.. كدراسَة الْملابس الَّتِي كانت تلبسها الْمرأَة عند وقوع جرائم جِنْسِيَّة عَلَيْهَا (هتك الْعرض أو الاغتصاب) ؟!

سجَّلت الْفَرَنْسِيَّة ملحوظَة باردو، فانتهزت الْفرصَة للكلام.

- روايَة نجيب محفوظ (السَّرَاب) تقول شيئًا قريبًا من هَذَا "فكامل" بطل الرِّوَايَة لا يستطيع أن يمارس الْجنس مَعَ زوجته الْجميلَة.. ولكنه يمارسه بسهولَة مَعَ خادمَة، وامرأة شَعْبيَّة فالدَّافِع الْجِنْسِي لديه مرتبط بالْملابس الْفقيرَة أو الشَّعبيَة.. وقد عالجه طبيبه النَّفسي فِي الرِّوَايَة على هَذَا الأساس.

برجريت: مسيو محفوظ نوبل.. نوبل..آه أنت مصري ؟

لكزتني الْفَرَنْسِيَّة بمرفقها..همست

- شبق.. وعشوائي.. حشري أيضًا !

برجريت: الأدب مصدر مهم فِي علم الاجتماع الْجِنَائِي وأيضا علم الإجرام.

- الفَرنْسِيَّة: excusez moi..أعتقد أنه حان الْوقت لننصرف.

أخذت باردو بشكل طفولي، وكأَنَّهَا تنتزعها من الْكرسي، فقد أمسكت يدها، وأجبرتها على الْقيام، لا أعرف إن كان أخذها نظارَة دكتورتها الطبيه تم عن عمد أو بعفويَّة؟ فلقد استسلمت لها باردو، ولم تُعَلِّق وواضح أن باردو لم تكن ترى بوضوح!! .

انتقلا إلى مِنْضدَة أخرى.. شعرتُ بمدى شراسَة الْفَرَنْسِيَّة، أهي فَرِسَة من هَذَا النَّوْعِ أم هِيَ أعراض الْعادَة الشّهريَّة؟!.

٨

لحظتُها... انكسرت أشعَّةُ الضوء وشعرت بِهَا وكأَنَّهَا واقفَة بجسدها الْفارع الْمتلئ بلا ترهل، رائحتها فِي عبق الْمكان، أهي حقيقَة أم رغبَة لا تكف عن الْمثول.

أشعر بأصابعي بين أصابعها فِي عناق حارٍّ.

أذكر يوم قالت: ماذا يريد الرَّجل بعد أن تعطيه الْمرأَة كفَّهَا فِي أمان؟.

- قلت: ومتى يحدث ذَلِكَ ؟!.

- قالت: حينما يمنحها الرَّجل براءته !.

أهي ثورَة التَّبيذ الذي طلبته !!.

حمى الخيالات الَّتِي لا يَكْبح جِماحَها الْعقل، في مشد صدر أصغر بدرجتين عن مقاسها !! فترجرجا هَذَا التَّرجرج الذي يبيح بأنهما لم يخلقا للأمومَة !!.

يدي فِي يدها فِي تراخ حذر، قالت فِي كبرياء:

- تأخرت عليك.. ضحكت.

حينما وجدتني على نفس الْمقعد بجوار حوض السمك الْملَوَّن عند رَقْرقَة الْمياه.

الَّتِي بفعل موتور صغير بالْحوض، ابتسمت حينما وجدت سجائري (الْمينتول). بلونها الأخضر التّعناعي.

أشعلت واحدَة وهي تُرَدِّد.

متى تُغَيِّر شعالَة النَّار هذه؟!

تذكرت يوم قلت لها.. شيئا خطيرًا أن يغير الرَّجل نوع تبغه !!

قالت: لا مفر.. استسلم؟!

ومن يومها وأنا أدخن سجائر مينتول خضراء...

كنت لا أدخن السيجارَة.. بل أدخنها بداخلي. فهل هي مُضِرَّة أيضًا بالصدر!!

آه يا هي... آه يا عربدَة الْعقل.

أخذت نَفَسًا عَمِيقًا من السِّيجارَة الَّتِي توهَّجَت بين أصابعي.. وابتلعتُه حينما نظرت إليها.. كانت لا تزال فِي نظرتها جرأَة الْمرأَة الَّتِي تعلم الصبي كيف يعرف ذكورته فيرفع جلبابه ؟[1] .

---

(١) في أسوان ينتشر بين النِّساء اعتقاد راسخ بأن تمثال (مِن) إلـه التّناسـل عنـد الْفراعنَة. والْموجود في جزيرَة (الفانتين) ينطوي على قدرَة خارقَة تتجلى فـي إخصابه للنساء الْعاقرات وهُنَاكَ طقوسا خَاصَّة تتبعها كل امرأَة قبـل الزيـارَة، حيث تقوم سيدَة أخرى بتشريط كعب قدمها بالْموس حتَّى تنزل منه الدماء وتقوم بوضع (مستكَة ومحلب وجادي وشبة) في مبخرَة وتخطو عليها السـيدَة سـبعَة مرات ثم تنطلق إِلَى الْجزيرَة، فتركب الْمركب وتعبر به النَّهـر شـريطَة أن لا تتحدث مَعَ أحد على الإطلاق أثناء الذهاب والعودَة حتَّى تعود إِلَى منزلها وتلتقي بزوجها؟! وفى طريق الْعودَة يقولون: تكون في نظرتها جرأَة الْمرأَة الَّتِي تعلـم الصبي كيف يعرف ذكورته..فلقد أعطاها الإله الخصوبة وما الرَّجل إلا فرصَة لعمل أعجوبَة الْقدر؟!

جذبتْني فِي حركَة عُهْر حقيقيَّة.

قالت: اللَّيْلَة استَقْبِلني بمنزلك ؟!.

قلت: أنا متزوج ؟!.

قالت: استلذّ مغامرَةَ المْرأَة الشّرعيَّة، والمْرأَة المْرغوبَة!!.

قلت: لا يفعلها إلا يس عبد الجْوَّاد... ابن سي السَّيِّد؟!.

شرِبْنا فِي نخب يس عبد الجْواد بطل ثُلاثيَة نجيب محفوظ !! كانت سَمْراء ذاتَ لَوْن نُحاسي يوحي بأنها تنتسب للبربر في شمال أفريقيا.

راجعنا المْشهد معًا... فهي قارئَة جيدَة لما يكتبه المْصريون.. هي تستعيد الرِّوَايَة... وأنا أسترجع الْفيلم.

(أخذ عبد المْنعم إبراهيم "يس" ناديَة لطفي "زَنُّوبَة الْعالْمَة" وهو سكران طينَة فِي حنطور ودخل بِهَا على زوجته فِي منزل الزوجيَّة – لم يجد مكانًا آخر؟.. قِلَّة الْحيلَة !!– استيقظت زوجته ترك الزوجَة والعشيقَة معًا فِي عراك !! وذهب للقهوَة؟!).

قالت: عندي عزف بالفرنساوي على نفس المْنوال ولكنه حقيقَة لا روايَة خياليَّة.. أغرب ما فِي مذكرات (برجريت باردو أو "ب.ب" كما اشتُهرت.. كم هو غريب عالَم نجمات السِّينِمَا!!) هل تعلم فضائحها مَعَ الرِّجَال؟! فبعد طلاقها من زوجها فاديم غرقت فِي علاقات مَعَ الرِّجَال فوقعت فِي حُبِّ (جان لوي ترينتيان) الذي كان يشاركها بطولَة فيلم (وخلق الله المْرأَة) بل إنه انتقل للحياَة معها وترك زوجته ، ثم تعرفت على المْغَني (جيلبرت بيكو) وشاركتْه استعراض رأس السَّنَة

وتعترف بسهولَة أن قلبها وفراشها قد جمع بين الاثنين[1] !! وأدى ذَلِكَ إِلَى هجر جان لوي.

لها بعد أن ضبطها مُتَلبِّسَة مَعَ الآخر !! وحينما عرفت أن الْمُغَني بيكو يحب عَلَيْهَا أخرى جُنَّ جنونُها، وانتحرت ولكنَّها أُنْقِذت بأُعْجوبَة، ولم تتعلم مِمَّا حدث لها، فارتبطت بالْمُغَنِّي (ساشا) لتغيظ بيكون، وكان ساشا فِي بداياته، فاتَّخذها سُلمًا لِيَصِل للشُّهرَة؟! ولكنَّها كعادتها فِي الْجمع بين الرِّجَال والسقوط فِي حب أبطال الأفلام الَّتِي

---

(١) ما كتبته الْممثلَة الشَّهيرَة برجريت باردو (ب.ب) لهذه الْعلاقَة من داخل مذكرات " احب الكلاب..اكرة الرجال"

والَّتِي كتبتها بنفسها":((كان جاك شارييه يتخلل مشاعري بهدوء لكن بقوَة ، استمرت علاقتي بساشا لكني لم أستطع أن أتخلى عن التَّفكير فِي جاك ، وعندما كان يغيب ساشا فِي جولَة فنيَة ، كنت أستقبل جاك فِي منزلي !! وفي يوم كنت أنام في هدوء وسكينَة فِي أحضان جاك ، وعندما سمعت صوت الْمصعد يتوقف ، كانت السَّاعة الْواحدة صباحًا وكنت أظن أن ساشا لن يجيء الليلَة ، فِي لحظة قفزت من الْفراش وأغلقت باب الْحجرَة ، ففتح ساشا باب الشَّقَة بالْمفتاح الذي معه ، ووقف على باب حجرتي يعلن بصوت جهوري قدومه الْمفاجئ !!.. تجمدت من الْفزع ذهل جاك من الْموقف وأسرع بارتداء ملابسه وطلب مني مفتاح الْحجرَة ليخرج ، لكنني لم أكن استطيع مواجهَة الرَّجلين فألقيت بالْمفتاح من الدور السَّابع فِي الشَّارع، كان ساشا ثائرًا وجاك خائفًا ، رجوت ساشا أن يهدأ وينصرف وتوسلت لجاك ليتوقف عن إهانَة ساشا ، انتهى هَذَا الْموقف الْغريب بانصراف ساشا بعد أن أغلق الْباب وراءه فِي عنف. ولكنني تبينت أنني سجينَة فِي حجرَة نومي. ناديت على زوجَة الْبواب السَّاعَة الثانيَة صباحًا ، وطلبت منها أن تبحث عن مفتاح حجرتي فِي الشَّارع.. وبالتَّأكيد ظنتني مجنونَة ، وبعد ربع ساعة ، حررتني زوجَة الْبواب أنا وجاك من سجننا.

تشارك فيها وقعت في حب جان شاربيه وبنفس الطريقَة اكتُشِفَت هذه العلاقَة الجديدَة؟!... إنها "ياسين عبد الجواد – الأنثى"؟!.

قبل أنّ أستغرب وأعلق. استمرت قائلَة.

الأمر عادي.. راجع القانون !! إنّي أعرف من يجمع بين أكثر من واحدَة؟ وأكْمَلَتْ: كان هُنَاكَ عصرٌ يجمع فيه الرِّجَال الجواري والإماء، وما ملكت أَيْمَانُهم، العصر الآن يقبل العشيق ويقبل العشيقَة – الآخر مهم يا رجل؟!

لا مفر من الاحتفاء بالجسد بدلا من قمع رغباته!!

العصور تُوجِدُ لنفسها تِقْنيَّة سرِّيَة بأشكال متعددَة لتجديد الغرام! فيبدو أن هُنَاكَ ثَمَّة حركَة بين الرِّجَال والنساء، تلعب في حياتنا ما تلعبه قوَّة الجاذبيَّة بين الأجرام والنجوم. بدأت بالبِغَاء المُقَدَّس في المعبد[1] وانتهت بالمُخَادِنَة، أو العشيقَة. وأدرك الرَّجل مُنْذُ البدايَة أنه

---

(١) يلحق بالهياكل (في سومر) عدد من النِّساء منهن خادمات ومنهن سراري الآلهَة أو لممثّليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض (الرِّجَال) ولم تكن خدمَة الهياكل على هَذا النَّحو الجنسي يعتبر عارا – وكان على امرأة من نساء بابل (كما ذكر المؤرخون ومنهم هيرودوت) أن تذهب مرَة في حياتها لمعبد الآلهَة ميليتا (Mylitta) حيث تجلس تنتظر أي رجل يدخل إلى المبعد فإذا أعجب الرَّجل بشكلها ألقى في حجرها قطعَة من الفضَة ثم مارس معها العمليَة الجنسيَّة داعيا لها.

أن ترعاها الآلهَة ميليتا ولم يكن مسموحا للمرأة أن ترفض ما ألقي في حجرها؟! فإذا ما انتهت العمليَة الجنسيَّة وانتهى معها واجبها الديني تركت المعبد وعادت إلى منزلها!!وقد استمر البغاء المُقَدَّس في بابل حتَّى القرن الرابع قبل الميلاد، ثم أمر بإلغائه الإمبراطور قسطنطين حوالي سنَة٣٢٥ ق .م وكان

إذا لم يكتف بزوجته فإنها هِيَ أيضًا لن تكتف به، ولذا ظهر في التاريخ الرَّجل الذي يصنع لزوجته حزام الْعِفَّة الْحديدي ويُمسك بمِفْتاحِه معه؟!.

ولكن لأنه خَصَّص لنفسه نساءً أُخْرَيات خارج نِطَاق الزَّوَاج، فهو عاجز عن الاكتفاء بواحدَة ؟! وهو لا يرضى بالتالي كل ما تريده واحدَة! فقد قلدت الْمفاتيح وظهرت الْمفاتيح الْمُصْطنعَة! فإذا كان الرَّجل الْفاضل له الْحق فِي كل ذَلِكَ، فالْمرأَة الْفاضلَة يكفيها زوج وعشيق واحد! ما رأيك أتقبل بهذه الْقسمَة ؟!.

اسم آلهَة الْمعبد يتغير من بلد، في بابل كانت الْبغايا الْمُقَدَّسات يخدمن في معبد الآلهَة ميليتا، وفي كلدانيا وسوريا حلت محل الآلهَة ميليتا الآلهَة "عشتروت" (starte)، وفى بلاد الْفرس كان هُنَاكَ معبد الآلهَة ميترا (mithra) أرمينيا معبد أنايتيس (anaitis) وعلى حدود بلاد الْعجم معبد الآلهَة أرتميس (artemis) وكانت الْبغايا الْمُقَدَّسات يتألفن من طبقَة الْكاهنات يطلق عليهن (حريم الإله) واشتهرت في روما في معابد الرُّومان الْبغايا الْمُقَدَّسات لدى الآلهَة برياب وباكوس ومتينوس وغيرها .. ويقول كولن ويلسون: إنه لا يرى لهذا الْمعنى إلا أن يَكُون الإله له أعضاء جسديَة وله علامات الذُّكُورَة.؟! الْمهم أن الْعذراء بعد ممارسَة الْجنس تكتسب التَّقديس وتصبح امرأَة ومقدسَة في وقت واحد . وقد ظل الْبغاء الْمُقَدَّس موجودا حتَّى عصرنا هَذَا في بلاد منها: الهند واليابان وتفتح الْمعابد أبوابها في الهند والسند لاستقبال الْفتيات اللائي يهبن أنفسهن للآلهَة ويخصص بعض هؤلاء الْفتيات لإرضاء حاجَة الرِّجال الْجنسِيَّة (حجاج الْمعبد) وغير مسموح لهن أن يتزوجن؟! يقول جيمس وعدد أخر من الْعلماء: إن منازل الْبغايا حلت كتطور طبيعي محل الْمعابد الْمُقَدَّسَة وظلت تؤدي الْوظيفَة الأساسيَة لها، وهيَ إرضاء شهوات زوار هذه الْمنازل واللذين كانوا من قبل زوار الْمعابد!

وإن كان الأمر لن ينتهي ؟! ففي المغرب الآن عندنا ما يعرف بالزَّوَاج الصَّيْفي، وهو زواجُ الْكُلِّ يعرف أنه مُؤَقَّت ولكنه يَصْمُتُ حتَّى لا تَبُور النِّساء والْبنات! - هو زواج مُحَدَّد الْمُدَّة يحل مشاكل الرَّجل الْغَنِي، و المْرأة الْفقيرَة - مَعَ وجود هَمِّ الْعُنُوسَة الْقابع على أنفاس حَرِيم المْغرب - فحَلُّ الْمُشْكِلَة الْجِنْسِيَّة لا يستطيع أحد قولَه، ولا كتابته!.

٩

تَحَرَّكَ الْعقل الْقَانُونِي.؟! الْقانون الْفَرَنْسِي لا يتدخل إلا عند الاعتداء على الْحُرِيَة الْجِنْسِيَّة.. وفى حالَة الرِّضا يُتْرك الأمر لدائرَة الأخلاق- الأمر مُطَمْئِن - !! الاغتِصَاب هو اتِّصال رجل جِنْسِيًّا بامرأَة دون مُساهمَة إِرَادِيَّة من جَانِبِهَا - فإن رَضِيَت – لا شيء فِي الْقانون؟.

انطلق لساني الْفَرَنْسِي الأخرس فِي داخلي. أليس اعتداء على شرفها؟ ردت رغبتي الْمُتَرقِّبَة: الشَّرف مفهوم أخلاقي لا قانوني. الرِّضَا هُنَا قرين الْحُب. الْقانون علم تجريبي إنساني فكيف يغفل الْحب !!.

تساءلت: هل ينتهي الْحب عندما تنتهي الْحكايَة ؟! أم أنه يُشبِه الأرابيسك الَّذِي يشتغل على وحدَة رئيسيَة يعيد إنتاجها على امتداد مسطح الْعمل كله؟ .

شعرت بأني تخلَّصتُ من الْجمل الصابر، الْمبالغ فِي التَّأقلم مَعَ الصحراء، الْقاسي مَعَ نفسه فِي فَهْم نصوص الأقدار، تخلَّصْت من حياءِ الْجِمَال الَّذِي تأخذه عليَّ الْمغربيَّةُ السَّمْراء، فالْكلام واضح ولا حَيَاء فِي الْقانون ؟! ولا فِي الْعُيون !! فالْجَمَل الَّذِي لا يأتي أنثاه إلا فِي خلوَة رغم رحابَة الصحراء!! يحتاج لمُرَاجعَة الْقانون الْفَرَنْسِي، والاستسلام للقوَّة النَّاعمَة والأقدار النَّاعمَة!! فلماذا أنا عاجز تمامًا عن أيِّ مُلاطفَة لها فِي مكان عام؟ وسيِّئ فِي اختيار الْمقعد الْقريب منها الَّذِي يسهل لها مني ممارسَة نَزَوَاتِها أو أُمُومَتها؟ فلم تكن زوجَة ولم تكن أُم، ولكنها من فقهاء قانون الْمدرسَة اللاتينيَّة!!.

اخلع خُفَّيْك فإنَّك بالجسد الْمُدَلَّل طُوى ؟!.

أُلْهِمت النَّفْسُ الفجورَ، فسبحان من ألهمها فُجُورَها وتقواها. أَيقظت حسي بالعُرْيِ الْمُبْهِج، الفائر، الناعم.. كل كُؤوس الحْياَة الْمُتْرعَة بخَمْر الأحزان والأحلام ، نشوَة.كآبَة.سَكِر الْقلب الذي لا يراع؟ هذه لحظَة من أَجَلِّ ما عرف الزَّمن رغم أنها مُعادَة وتحدُث فِي اليوم الْواحد آلاف المْرَّات، فهِيَ الْمَعاد الَّذِي لا يُملّ، وما ينبغي أن يُمَل؛ فهو يَتضمَّن سِرَّ الْوجود الأعظم!.

لا تزال أشياء بيننا.. لا يكفي أن يتعرى الجْسد للجسد ؟! وإنما يجب أن يتعرى الإنسان للإنسان..الْموقف تعدى الْملاطفَة.. أبدأ فِي الْوصول لأحلى أوقات جنوني. ماذا بعد الأعمال التحضيريَة. أَعُدُول أم شروع [1] ؟ أُمُمْكِن أن يتراجع رجل الآن؟ كيف تراجعْتَ يا يوسفُ !!. كيف أيُّها الصَّدِّيق؟ أُقَاوِم حارسي الدَّاخلي؟! كم يعذبني، إنه سجاني؟! ولا شهود على تعذيب سجان؟.

هي - أريد أن أراك كجورب مقلوب ؟!.

أنا - هَذَا لن تحتمليه.. داخلي يبكي!.

هي - ولماذا لا يَكُون بداخلي أيضًا ؟!

---

(١) الشّروع هو الْبدء في تنفيذ فعل بقصد ارتكاب جنايَة أو جُنحَة اوقف أو خاب أثره لأسباب لا دخل لإرادَة الْفاعل فيها ، ولا يعتبر شروعًا في الْجنايَة أو الْجنحَة مجرد الْعزم على ارتكابها، ولا الأعمال التحضيريَة لذلك، وتعين قانونا الْجنح الَّتِي يعاقب على الشّروع فيها وكذلك عقوبَة هَذَا الشّروع فإذا لم تعين الْجنح بنص فلا عقاب على الشّروع في الْجُنَح.

أنا - أأفعل ما أخاف ؟.

هي- افعل ما تحب، أنت فِي أحضاني، ألا يبرُك هَذَا الْجمل الْعبيط!. أَلَمْ تسمع نجيب محفوظ فِي (السَّرَاب) وهو يقول:

"أعظم واجب فِي الدنيا أن تلاعب فتاةً جميلَة تحبها".

رأت أني (ظاهرَة مُنَافيَة للطَّبيعَة) أن أسعى لهدف، فإذا أصبح بين يديَّ زَهِدْتُ فيه! أَنْهَت الْفلسفَة جمال اللَّحظَة ؟! كانت تعرف أني أُحِبُّها، أُعْجِبتُ بِهَا، سَعَيْتُ إليها. فرفضت أن أكون عاشقًا مهزوما!.

قامت فِي غلالتها الْحمراء الشَّفافَة.. تألَّقت أنوثَتُها حين انتصبت. وضعت يَدَها بيْن فَخِذَيّ.... وكأَنَّهَا عاهرَة بالسَّليقَة ؟! .

ضَحِكَت. اسْتَمَالتْني.

فنزعتها.. وهبَبْتُ وَاقِفا.. مُنْهِيًا الْحالَة برُمَّتها.

لاحَظْتُ خُمُود نَهْدَيْها من الْفَوَرَان وكأَنَّهَا أُخِذَت على غِرَّة بِعِنَادي؟! فتحسَّرْت من التَّردُّد، لم أفعل بنصيحَة شجرالدر "الْمَلِكَة الْمملُوكِيَّة".

إياكَ إياكَ.. والتردُّدَ يا أيْبَك.. التَّردد؟!.

الْعَقْل يَتَمَادَى فِي جُنون الْحُزن حين تَسْطَع اللَّذَّة حتَّى تعانق الألم كانت فِي عيوننا دموع الهزيمَة؟! دموع فرسان الْمماليك وهِيَ تنطلق بسيوفها فتقتلها مدافع نابليون بدون قتال، لم يكن الأمر بطولَة لبونابرت، ولكنه مُجَرَّد فروق التوقيت، بين الْمدفع والسيف، بين الْجَمَل وبَنَات الأَطْلَسِي!!.

١٠

- قالت..أنشرب الْقهوة.. فأنا أعرف قراءَة الْفنجان !!

- لا تعبثين. فليس لِي غيب محوج.

- أنا امرأَة من الْحريم يا سيدي. لا توجد امرأَة فِي (فاس) لا تقرأ الْبُن؟! وما حدث، يحدث دوما مَعَ حالتِك ؟!.

- أأنا حالَة؟!.

- وأنا لستُ قَحبَة، من قحبات طنجة!.

- وأنا لست عِنِّين !.

جَلَسَتْ والشَّوق فِي عَيْنَيْها تتأمل فنجاني الْمقلوب..

قالت:.

(يا رجلي لا تجزع. فالعِشْق فِي فِنْجَانك مَكْتُوب؟ فِنْجَانُك كُلُّه نساء لكن نساءك بلا نُهُود ولا فُرُوج.. ألا توجد فِي حياتك امرأَة هي الْمسك، والورود؟! رجل بلا رغبَة تشعله.. رجل مَوْءُودا!).

ضحكت.. نظرت لِي فِي تَشَفٍّ !!.

- قالت.. ألست ذا مآرب فِي السمراء اوالْبيضاء اوالسوداء، ألك فِي الْغِلمان ؟!.

إنها تَنْتَقِم بأُنُوثَة جرحها التَّرَدُّد.. فَضَحِكَت بلَوْن أَصْفَرَ.

استمرَّت:

(الْبُنُّ يقول إنك مَفْتُون. الصحراء لا تختبر الْجِمَال إذا فجرت الْعيون؟ ولكن الْجِمَال بلا غريزَة للفضول؟ جسدك مصاب بالخرص. وأنا لست الْبتول!! قاوم ضمور الْجسد).

كانت تصهل كَمُهرَة.. فعرفت أنِّي مقتول؟!.

قالت: أيها الْجمل الصَّحْرَاوِي، ألا زِلْتَ تتحمل الْعَطَش. اشْرَبْني عاهرَةً شِئْتَ.

أو جاريَةً!.. خُذْني محظيَّة.. أو موهوبَة.. سبيَّة!.

كان داخلي يَهْمِس متى يأتي سيِّدُها بالْباب؟!.. ففي فرنسا لا يتدخل أحد. وهِيَ سيِّدَة الْمواقف..امرأَة بلا زوج، ولم تصبح أُمًّا، وأشْعَلَ حُبَّهَا رغبتُها.

داخلي يهمس لا توجد محاذير فِي الْقانون الْفَرَنْسِي؟! ولا ثغرَة، راجعته.. وهو فِي حالَة الرِّضَا يترك الأمر!!.

أنا مِمَّا ملكت يمينُك...أنا مِمَّا ملكت شمالُك؟! .

داخلي يهمس، هل تهزم امرأَةُ الْعزيز هذه اللَّيلَة؟! أنا مسحور، ذائب. وهِيَ تضع رِجْلَيْها فِي الْماء.. وتتكحَّل! والوقت بين النَّشوَة والغثيان.

سكاكين النِّساء فى هذا اليوم الغيبى لم تفرق بين الأصابع والتُّفَّاح من جَمالِ سَيِّدِنا يوسف! .

والعُشَّاق لا يسألُوْن عند اللِّقَاء عن الْحرام والْحلال !!.

والسِّنين الْعِجَاف على الأبواب..

فهل يوسف مسجون بداخلنا يفسِّرالأَحْلام للْعَاصِينَ ؟!

وَضَعَتِ الْفِنْجَان. وسكنت.. ضمَّتْني. جَمعَتْ أشْلائي..

نساء الفنجان يَنْتحِرْن ؟! قد ماتت كل نساء الأرْض وبقيت هِيَ بفنجاني؟!

قالت:أحِبُّكَ.

ففارت وسامتي!!.. قدَّت قميصي من دُبُر وَمِن قُبُل.. فقددت غلالتها. لم أستعصم !! أخذت أسلحتي.. نزعت أقنعتي.. أذاقتني طعم الْحرق.. وطعم النَّار...

حلقت الْمرأة الْمجنحَة !!

فماتت فِي محراب عينيها ابتهالاتي وانكسرت بالرغبَة راياتي.. أنستني النَّص الْمُقَدَّس؟؟.

قالت: هِيتَ لك، ولم أقلْ: مَعَاذَ الله.

نجحت نصائح فرويد: افعل ما تخاف؟!

وبدأ النَّحت الْمتكرر. ضَمَّتْنِي بجناحَيْهَا، قصمَتْني نصفين كالهلال!

دخلتها.. وعندما أوشكت على الذِّرْوَة أخرجت نَفْسِي لأنتهي على بطنها، أحاطت خَصْرِي بساقَيْهَا وهِيَ تقول.

لا..لا.. ابْقَ.

الْعراءُ فوق الْعراء.!! ذُقنا الشَّجرَة.. أكلنا منها رَغَدًا.. فبدت سوءاتينا؟! ووصلنا إِلَى حدِّ الْجُلْد. ووصلنا لحَدِّ الرَّجم!!.

استكانت وسمِعْتُ لها زَفِيرا.. بَانت فانْتَفَضَت تَغْتَسِل.. وبنت فطفقت علي الْغِطَاءَ.. أُعجبت بِهَا.. سَعَيْت إليها.. وأعرف خاتمتي وانتهيت. الْقَدَر يعمل إرادته.. فهل يَضُرُّ فِعْلٌ مَعَ إيمان؟! فهل نشاء إلا ما شاء الله؟! أيُسعِفني الأشَاعِرَة..أم يُدِينُني الْمُعْتَزلَة؟! أمكتوب فِي الأزل الْغيبي..أم النَّص الْمُقَدَّس بافعل ولا تفعل؟! لم يكن ممكن لآدم أن يعمل بالأمر.. والْمشيئَة كتبت أن تكون حياتُه بالأرض؟! يا لها من إشكاليَّة مَن يُنْشِئ الأفْعال؟.

خرجتْ من مِغْطَسِها بالْبرنس.. وجدتني فِي ملابسي بدون اغتسال!.

لماذا لم تلحق بي.. أزوجتك لم تعرفك طقوس النِّهايات! فاتك الْحَمَّام الْمغربي، فاتك أن أُجَرِّشَكَ...الا تعرف سحر الْحَمَّام الْمغربي؟ راحَة ما بعد الانتهاء!.

لم أكن أعرف وقتها إلا عذاب آدم.

أحبها، أكرهها، ولكني دوما أشتهي وصلها..

أنا فِي حالَة إدمان "كامل الشّناوي" "رأيت أنها ذنبًا، سألت الله ألا يغفره".

بعضي يُمزِّق بعضي، أبكي على بعض بعضي!.

١٢

الْمَكَان بزُجَاجِهِ الْمُلَوَّن وبِدِيكُوره الْبَسِيطِ. يوحي بأزمنَة أسطوريَة مشربيات بالأرابيسك الْمتداخل عاشق ومعشوق.. مِشْكَاوات متناثرَة هُنَا وهُنَاكَ.... قلل فخاريَة تخرج منها إضاءَة خافتَة تتلَوَّن بلَوْن جوف الْفخار فترى كل ألوان قوس قزح.

وجدتُ الْفَرَنْسِيَّة مرَّة أخرى أمامي.. لا أعرف كيف تظهر لِي ؟!

إنها فِي لهوجَة دائمَة.. جاءت لمنضدتي.. صاحت بصوت عال.

نسيت حقيبتي ؟!

وجدت السجائر، وشعالَة النَّار الْقديمَة، أخذت واحدَة دون استئذان.

منتول، نعناع.. ألا زال موجود هَذَا التبغ السيئ!!

أطفأتها.

مسيو، هل أنت مسلم ؟

نعم.

العجوز.. الْبدينَة.. ذات السبورَة والطباشيرَة.. تريد أن تضيف إِلَى الْبحث "الْحجاب" من وِجهَة نظرك هل أوجده الْمسلمون لمقاومَة السَّبَق الذُّكُورِي لديهم أم هو يمثِّل شيئا عقائديًّا.. أَتُسَاعدُنِي فِي ذَلِكَ ؟!.. يمكن أُسوِّي الأمرَ معك فِي جامعَة ليون- فالإسلام بعيد جدا عن

اهتماماتي، وبخَاصَّة أن "الْحجاب" مختلف الشكل بينكم – إني أحيانا لا أرى من الْمرأَة غير عينيها؟!

لا.

لماذا ؟!.

لأنَّك مجنونَة.. أن تبحثي في "الْحِجَاب أو النِّقاب" داخل دراسَة أكاديميَة عن الدَّافِع الْجِنْسِي فِي الْجَرَائم الْجِنْسِيَّة؟!.

اعتقدتُ أن الأمر يَرُوقُكَ أيُّها الشَّبِقُ!.

ما يَرُوقُنِي الْبحث عن تلك الْجذور، عند "عارِيات الْجسد" من يرتَدِينَ التَّايِيرات الْقصيرَة.

أخذتْ سِيجارَة أخرى.. دون استئْذَان أيضًا.. أشعَلَتْها.

قالت: منتول، نعناع.. ألا زال موجودًا هَذَا التَّبْغ السيئ!!

انْصرفَتْ وهِيَ تدخنها فِي نَهَمٍ !.

جاء النَّادِل. قدَّم الْفاتورَة معتذرًا بأن ورديَّة عمله انتهت. أشعلت سيجارَة مينتول.. لبست نظارتي الطِّبِّيَّة، نظرت فِي الْحساب.

(نصف زجاجَة نبيذ ، نصف دجاجَة مشويَّة ، كميَة أخرى من النَّبيذ، ١٢٪ ضريبَة ،١٠٪ خدمَة) لمحت الْفَرَنْسِيَّة تغادر الْمَكَان مَعَ أستاذتها الْعجوز الْبدينَة، ذات.

السبورَة والطباشيرَة. التَقَت الْعيون.. التَّنِّي نِي النَّنِّي، فأخرجت لِي أصبُعُها الأوسط من خلف ظهرها!! كانت هُنَاكَ بقعَة حمراء على التَايير الأصفر من الخلف!.

دفعت الْحساب بلا تحسُّر على غير الْعادَة.. فلم يكن ضمن الْحساب امرأَة لزوم الْمكان!! وتركت شغَّالَة التَّار الْقديمَة.

مشكاوات متناثرَة هُنَا وهُنَاكَ.... قلل فخاريَة تخرج منها إضاءَة خافتَة تتلَوَّن بلَوْن جوف الْفخار.الْمَكَان بِزجاجه الْملوَّنِ وبديكوره الْبسيط يُوحِي بأزمِنَةٍ أُسْطوريَّة مشربيَّات بالأَرَابيسك الْمُتداخل، عَاشِق ومَعْشُوق، مشكاوات مُتناثِرَة هُنَا وهُنَاكَ، فترى كل ألوان قوس قزح؛ الأحمر يتداخل بالأزرق والأصفر يطل من الأخضر.

١٣

على مساحَة كبيرَة من أرض الْمعارض الَّتِي تقع خارج باريس يجتمع الآلاف من الْمسلمين الْقادمين من أنحاء أوروبا وأيضا أفريقيا وبعض الدَّول الْعربيَّة ، على مدى أربعَة أيَّام -سنويًّا- يلتقون خلالها بالشخصيات الإسْلامِيَّة من مختلف الْبلاد الأوروبيَّة والإسلاميَّة يتحدثون عن قضاياهم الرَّاهنَة وعن إسلامهم ، وفي الْوقت نفسه تكون مناسبَة لمسلمي أوروبا.. وفرنسا بشكل خاص للاطلاع على آخر الإصدارات من الْكتب والأشرطَة الْمُسَجَّلَة الَّتِي تشرح وتُوَجِّه وتدعو إلَى التَّمسُّك بالْممارسات والتطبيقات والتعليم الديني. وقد تحدد عنوان الْمؤتمر ليكون: "من أجل إسلام خاص بفرنسا". وهو الشِّعار الذي رفعته الْمنظمات الإسْلامِيَّة فِي فرنسا مقابل الْفكرَة الأولى الَّتِي يتخوَّف منها الْفرنسيون وهِيَ "الإسلام فِي فرنسا" حيث إن السلطات الْفَرَنْسِيَّة ترفض وجود إسلام فِي فرنسا مُنْفَصِلا وَمُنْعَزِلا عن الْمُجْتَمع الْفرنسي لذلك اختار الاتحاد الإسلامي هَذَا الْعام أن يَكُون شعاره موجَّها إلَى السلطات الْفَرَنْسِيَّة فِي الأساس لكي يطمئنوا إلَى أهدافهم. فشعار هَذَا الْعام يدل على أن الاتحاد لا يريد من الْمسلمين فِي فرنسا أن يكونوا منفصلين عن واقعهم.

كانت فرصة ساقها الْقَدَر (أربعَة أيام) للإطلال على الْمسلمين خارج ديار الإسلام. هكذا أعلنت الْفكرَة لزوجتي، بينما كان الهدف الأساسي هو خروجي من أزمَة تطوُّر الْعلاقَة مَعَ (زبيدَة) الْمَغْرِبيَّة، ابنَة مَرَاكِش، الَّتِي وصلت مشاعري نحوها بل مشاعرنا الْمتبادَلَة حدَّ الْعِشْق. كان هَذَا الأمر مؤثِّرًا على علاقَتِي بزوجتي، ساد بيننا صَمْتٌ

مُطْبق واستمر أكثر من أسبوع فقدت خلاله طريقي إليها، بل ضاع مني مفتاح مدينتها؟! الحقيقَة أن هَذَا الْعشق الْجديد أدخلني مدن الأحزان. وانشغلتُ بحالي حتَّى لا يُؤَدِّي الأمر إِلَى وضع نفسي يَعُوق تَحمُّل الْغُربَة وانْشِغَالي بالدِّراسَة.

(زبيدَة) فِي هَذَا التَّوْقيت استولت تماما على مشاعري، ولمَّا كُنْت فِي الْحُبِّ لا أعرف اللَّعِب على خمسين حبل، ولا الانتقال بين النِّساء..أصابني الْعطَب وتبيَّن لِي أنها لعبَة صعبَة لا أعرفها، أن أغير الأقنِعَة وأعيش الزَّيْف. كان الأمر صعبًا أن تكون شفتاي بين أربع شفاه، وأن أنتقل من حضن إِلَى حضن. كيف أعطي زوجتي حنان الخيانَة، وألعب سياسَة فِي الْعشق ؟! من الْواضح أني أحادي الهوى، ولكن كيف الصبر على واحدَة طُوَال الْعمر؟!

كان ابني الصَّغِير علي مَلاك الرَّحمَة بيننا، انْشَغَلْتُ به وانشغلتْ به زوجتي؛ ولِذَا بَدَت الْفِكْرَة مُوَفَّقَة، أربعَة أيام مَعَ الزوجَة الشَّرْعيَة، والابن الْعصَب.. وأهل الله من الْمسلمين وحَتَّى وإن اختلفت الْجنسيَّات.

اليومُ الأوّل:

اجْتاحت صالاتِ الْعُرُوض هَذَا الْعام بجانب الْكُتب والْكاسِيتَّات اللافِتاتُ باللُّغتين الْفَرَنْسِيَّة والعَربيَّة الَّتِي تتحدَّث عن الإِسْلام، وتُعلِن عن الْمدارس الإِسْلامِيَّة وتُطالب بتبرُّعات لِبِناء الْمَساجد خَاصَّة فِي باريس وضواحيها؟! فكان التَّركيز أكثر على التَبرُّعَات وفتح الْمدارس الإِسْلامِيَّة خَاصَّة بعد تطبيق الْقانون الخاص بِمَنْع ارْتِدَاء مَا

ينمُّ عن الانتماء الدِّيني فِي الْمدارس، ومقصود به الْحجاب بالنِّسْبَة للفتيات ،.. وذلك بهدف إعطاء الْفتيات الْمسلمات الْفرصَة ليتعلمن بدون أن يضطررن إِلَى أن يخلعن الْحجاب.. وفي الْمُقابِل صدر قرار سِيادِي لـ (دي فيلبان) - وزير الدَّاخليَّة الْفَرَنْسِي- بتعليم وتكوين أئمَّة الْمساجد فِي فرنسا فِي (جامعَة السوربون) ويبلغ عدد هؤلاء الأَئِمَّة نحو ١٢٥٠ إمام مسلم فِي فرنسا، ويَتَكَوَّن برنامج تدريب الأئمَة أساسا من تعليم اللُّغَة الْفَرَنْسِيَّة، ومبادئ الْقانون، والنظام السياسي الْفرنسي، والتاريخ الْفرنسي، وثاني خطوَة تقدم بِهَا دي فيلبان هي تشكيل رابطَة إِسْلامِيَّة تكون مهمتها تنسيق وتنظيم الْعلاقات بين الْمسلمين فِي فرنسا والسلطات الرَّسميَة الْفَرَنْسِيَّة، ويكون من مهمتها أيضًا تَقَبُّل التَّبَرُّعات والأموال من فرنسا والخارج لرعايَة شُئون الْمسلمين فِي فرنسا؟! وبذلك يَكُون (دي فيلبان) قد منع تمويل الْمساجد من الخارج، وأوقف تأثير الدِّول الأخرى فِي شئون مسلمي فرنسا.

وسط كل هَذَا الْمشهد الدِّيني تَأْتِي خواطر مضْطَربَة، أُحاول صرفَها فلا تُصرَف! لم تكن من الشَّيطان بل من داخلي.. لم تبرح مخيلتي:

- "عندما هممت أن ألحق بِهَا فِي الْمغطس وجدتُ أوراقا منفصلَة من كتاب أجهله عَلَيْهَا تعليقات منها وجدتُها على أرضيَّة الْحُجرَة. كانت الأوراق مكتوبَة بالفَرنْسِيَّة والتعليقات غامِضَة متكررَة تنتهي بعبارَة: كسرتَ قُلَّتي؟! رأت الْقصاصات بيدي؟! فعلَّقَتْ: لغتُك الْفَرَنْسِيَّة أصبحت جيِّدَة... فما الْمعنى؟".

- "عندما أوشكت على الذَّرْوَة أخرجت نفسي- لأنتهي على بطنها أحاطت خصري بساقيها وهِيَ تقول:لا..لا.. ابق.!!".

كيف؟! أأنا الأوَّل أم مجرد عابر سرير؟

همهمت مَعَ نفسي.. أحبُّك، فما ذنبي إن جاءني حبك فِي شكل خطيئَة؟!

ما أجمل ما حدث بيننا، ما أجمل الَّذِي لم يحدث، ما أجمل الَّذِي لن يحدث ؟! نحن لا نُشْفى من ذاكرتنا.

كيف ينظر أتباع الدِّيَانَات إِلَى المْسيح؟

هَذَا السُّؤَال أجاب عنه تقرير قُدِّم للمؤتمر فِي اليوم الأَوَّل.. وكشف التَّقرير أن المْسلمين هم الأكثر توقيرا لشخص المْسيح، والأكثر إيمانا بمضمون رسالته الَّتِي بُنِيَت على المْحبَّة والتَّسَامح، بينما يرى أتباع البْوذيَّة أنه شقيق لـ "بوذا" رغم التَّفاوت الزمني والجغرافي بينهما ؟! وهو يقترب أيضا من موقف الديانَة الهندوكيَّة. أَمَّا اليهود فلا يرونه بكل هَذَا الجْلال والتَّوقير فقد ألصقوا به صفات بَشِعَة ونعتوه بأوصاف وألقاب مُشِينَة. المْسلمون يؤمنون بالمْسيح كنبي يسبق محمد – صلى الله عليه وسلم - زمنِيًّا وأنه رسول الله جاء بالإنجيل، وبالنِّسْبَة لليهود كانت نظرتهم التَّاريخيَّة الْقديمَة للمسيح ولا تزال كمُخَلِّص ومُنْقِذ للبَشَرِيَّة وإن كانوا يعتقدون أن الْمَسِيحَ لم يأتِ بَعْدُ وهم ينتظرون مجيئه؟! والنَّظْرَة الْمُتَطَرِّفَة لبعض اليَهُودِ والَّتِي تُخالف ما جاء بالعهد الجْديد "الإنجيل" عن المْسيح فهم ينظرون إليه بشكل شديد الْقسوَة، ويرون أنه لم يولد من عذراء لم تتزوَّج ؟! ويَتَّهِمون

زُورًا مَرْيَمَ الْعذراء بأنها استسلمت للغِوايَة؟! وأنَّ الْمسيح اكتسب بعض الْقوى السِّحريَّة الَّتِي مكَّنَتْه من أداء بعض الْحِيَل الْمَاهِرَة !! وَيَزْعُمُون أيضًا أنه شنق وأُخْفِيت جُثَّتُه لِيَتِمَّ اكتِشَافُها بعد ثلاثَة أيام !!. الْمسلمون ينظرون باحترام شديد وحب للمسيح على الرَّغم من إيمانهم بأنَّ مُحَمَّدًا هو آخرُ الأنْبِيَاء، فهم يُقَدِّسون الْمسيح عيسى بن مريم باعتباره نبيًّا وليس ابنا لله - فالله مُنَزَّهٌ عن ذَلِكَ ، كما يؤمنون بالْمُعْجزَة الَّتِي أتت بميلاد السيد الْمسيح ولا يشكون مُطْلقًا فِي طَهَارَة وبتوليَة السيدَة مريم الْعذراء وأن معجزَة إلهيَة كانت وراء ميلاد السيد الْمسيح، دون وجود علاقَة بشريَة بين السيدَة مريم وأي رجل، كما أنهم لا يتشككون فِي صعود الْمسيح إلَى السماء. بل إن معجزَة الْكلام فِي الْمهد للمسيح لم يُثْبِتُها إلا الْقرآن الْكريم !.

وينتهي التَّقرير إلى سؤال ناعم كيف ينظر أتباع الدِّيَانَات الأُخْرَى إلَى نبي الإسلام مُحَمَّدٍ (صلعم) ؟!

قُدِّمَ للمؤتمر تقرير بعنوان "السَّلَفيُّون..الأرثوزكسيَّة الإسلاميَّة" جاء فيه...

ما معنى الأرثوذكسيَة؟ هَذَا هو السُّؤَال الأَوَّل الَّذِي يجب الإجابَة عليه قبل الدُّخُول فِي خِضَم الْموضوع. وبخصوص معنى هذه الْكلمَة "أرثوذكسيَة" فالْمُتخصِّصون يعرفون أنها يونانيَّة الأصل، وأن لها معاني متعددَة أفاضت فِي شرحها الْقواميس والْموسوعات، لكنها فِي نهايَة الأمر تعني بالْمختصر الْمفيد السلفيَة..

ولأن كلمَة "سلفيَّة" ذات وقع إسلامي وجرس عربي فصيح حين تفرِّق بين "السلف والخلف" أو بين الأوائل والأواخر، أو بين الْمُتَقدِّمين والمتأخرين ولأنها ترتبط ارتباطًا وثيقا بتاريخ الْعقائد الإِسْلامِيَّة وحاضرها باعتبارها اسما لفريق من الْمسلمين عُرِفوا بأهل السلف، ولأنها تُشير إلى سيادَة اللُّغَة الْعربيَّة لهذه الأسباب ظل الْمسيحيون الْعرب يستعملون الْكلمَة بمنطوقها ومعناها اليوناني فيقولون: الروم الأرثوذكس. الأرثوذكس السريان. الأقباط الأرثوذكس. وقد وُظِّف مصطلح "السلفيَّة" لصالِح الاستخدام الْغربي أو الأمريكي تحديدا.. فإنَّه لم يعد وصفا لنفر من أهل الْعلم قرروا الالتزام بالتعاليم الأساسيَّة، أو الْعودَة إِلَى الأصول، وإنما غدا عُنوانا لدعوَة للعُنْف والتَّطَرُّف يَنْعَت "السَّلفيَّة الإسلاميَّة" بالتَّخلُّف والعنف والعداء للدِّيمُقراطيَة وبكل الشُّرورِ والْعِبَرِ، ورغم أن بعض الْغرب انتسب إِلَى مجال الْبحث والعلم إلا أنه لم يلتزم بالقدْر الْمُفْتَرض من الْحَيْدَة والْمَوْضُوعِيَّة؛ لذا فإنه كان فِي مُجْمَله بمثابَة صحيفَة ادعاء أشد حِرصًا على إدانَة الْمُتَّهم. خطورَة ذَلِكَ التَّوْظيف اللُّغَوِي أنه يضع جميع الْمُتَدَيِّنين تَحْتَ تصنيف واحد بغير أيَّة تَفْرقَة بين معتدل ومتطرف!! الأمر الذي يكاد يوحي بأن الْمشكلَة الْحقيقيَّة تكمن فِي التَّدين ذَاته وهو معنى يُرَوِّج له الْبَعْض بإشارات مُتَبَاينَة الآن فِي فرنسا ؟! ولأن الْعَمَلِيَّة بدأت كمحاكمَة تكلم فيها الادِّعاء وحده حتَّى بدت الظاهرَة الإِسْلامِيَّة كأَنَّهَا من مواليد حِقْبَة السَّبْعِينَات الَّتِي شهدت ظهور عدد من الْجماعات الْمتطرفَة (التَّكفير والْهِجرَة، والْجِهاد) ويتجاهل تمامًا كل

صفحات سجل الإحياء الإسْلامِي مُنْذُ بِدَايَة الْقَرْن الذي يقف على رأسه نفر من السلفيين الْمُعْتَبَرِين مثل جمال الدِّين الأَفْغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا.

تعرَّفْت على مجموعَة من الْجَزَائِرِيِّين ، كانوا مُنَظمين ويُمَثِّلُون وحدَة.. بَعْضُهم ذو لِحْيَة كَثِيفَة ولكنهم جميعًا يلبسون الْملابس الإفرنجيَة ، كان حديثهم عن تدخُّل الْغرب، وبخَاصَّة فرنسا فيما أفرزتْه التَجربَة الدِّيمُقْرَاطِيَّة فِي الْجزائر من فوز للإسلاميين، بينما كانت من بينهم أصوات تطلب غلق الْملف ، لأن ما حدث فِي الْجزائر باسم الإسْلام جَعَل النَّاس تقول: ليت الْفتح الإسْلامي لم يَصِلْ أرضَنَا ؟! كانت التَّركيبَة النَّفْسيَّة للْجَزَائِرِيِّين جَادَّة للغايَة وكأَنَّهَا لا تعرف التَفريج عن النَّفْس لا بالقول ولا بتقاطيع الْوجوه، فِي الْواقع كان لديهم عَجْزٌ عَاطِفِيّ عن التَواصل، اللُّغَة الْعربيَّة بينهم (حادَّة) ومخلوطَة بالفَرنْسِيَّة. ويبدو أن الثَّورَة والجهاد الطويل وما بعد ذَلِكَ جعل هُنَاكَ مشاكل فِي الْبِنْيَة النَّفسيَة والعاطفيَة لَدَيْهِم.

جاء..اليَومُ الثَّاني:

وهو يوم اهتمام الْمؤتمر بالْملابس الإسْلامِيَّة وبمظهر الْمُسْلِمين؛ لِذَا اهتم الْمُنَظِّمُون بتخصيص مساحات أكبر لِلْمَلابِس وعرضوا الْملابس الإسْلامِيَّة للسيدات "دعوَة وير" أو ملابس الدعوَة فاحتلَّت مساحات أكبر من أيَّة ماركات أخرى كما عرضت ملابس صنعت فِي بلجيكا وفرنسا حتَّى تكون الْمرأَة الْمسلمَة كما يقول الْمسئولون "أنيقَة بدون أن تظهر خطوط جسدها- راقيَة دون أن تخالف ربها - مُتَرفِّعَة

عن الْفتنَة". من ضمن الاحتفال فرنسيات أَعلنَّ إسلامهن.. كُن يجلسن فِي خشوع ملتزمات بالزِّي الشَّرْعِي الإسلامي، يَحْكِين (قصَّة إسلامهن) ليتبين للحاضرين أن الأمر تم بإرادَة كاملَة.. وبدون تبشير – وهو أمر قُصِدَ ؟! يروين قصصهن وأحوالهن على مسرح صغير بخلفيته آيَة قرآنيَة {فمن شاء فَلْيُؤْمن ومن شاء فليكفر}.. وترجمَة بالفَرنْسِيَّة لها.

١- (ميشيل). أصبح اسمها (جميلَة) عمرها ٢٤ ربطها الْحب بزميل لها سوري مسلم دعاها إِلَى وطنه فسافرت إِلَى دمشق وهُنَاكَ استمعت إِلَى الأذان لأول مرَّة. وتمضي ميشيل فتروي قصَّتها:

كنت أشارك إحدى زميلاتي فِي غُرفَة معيشتنا، وكانت هذه الزَّميلَة تهتم بالأديان وكنا نتناقش لساعات طويلَة فِي هذه الْموضوعات، ولاحظت زميلتي أن آرائي تأخذ دائما جانب الإسلام وتتعجب لهذا، وكنت أرى أن آراء الإسْلام أكثر منطقيَّة وأنها صريحَة وواضحَة وقريبَة من الطَّبِيعَة الْبَشَرِيَّة. وقد كان واغْتسَلْتُ ونَطقْتُ الشَّهادَة وارتديت الزِّيّ الإسْلامِي وتَعلمتُ الصَّلاَة وبدأت أقرأ الْقرآن، وكانت الْبدايَة فِي آخر أيام رمضان الْماضي. وتسأل (جميلَة) هل كان لملابسك الإسْلامِيَّة تأثير على حياتك؟! تقول: فَصَلَني صاحب الْعمل من وظفيتي الَّتِي كنت أعتمد على دخلها فِي حياتي. لكن زوجي ساعدني وطلب مني التَّفرغ لدراستي وبيتي، وأنا الآن أنتظر مولودًا إذا كان صبيًّا سأُسَمِيَة (بلال) وإذا كانت فتاَة سأُسميها (صَفيَّة). وتجري دموع جميلَة على وجهها وتقول: أشعر كأن أحدًا قد

غسل عيوني ثم أعادهما إليَّ مرَّةً أخرى، لقد تغير العالم في نظري، هذه الدُّنْيَا جديدَة وحياَة مختلفَة وتسأل: ما هي الرِّسالَة الَّتِي تبعثين بِهَا إِلَى الْمرأَة فِي الْبلاد الإِسْلامِيَّة؟ - يجب أن تعرف الْمرأَة الْمسلمَة أن حُرِّيَة الْمرأَة في أوربا ليست حريَة حقيقيَة، فليس لها حقوق متساويَة في الأجر والعمل مثل الرَّجل، كما أن الرَّجل هُنَا لا ينظر للمرأَة نظرَة احترام، ولا يفكر فيها إلا كشريكَة في الْفراش؟!

٢- «بثينَة تحكي تجربتها: (في عام ١٩٧٦ شعرت أنَّ عليَّ واجبًا هو أن أفهم جيِّدًا دين زوجي، فقد كنَّا على وشك الإنجاب، وبالصُّدْفَة شاهدتُ فيلم "الرِّسالَة" الَّذِي كان نُقطَة تَحَوُّل كبير، فقد بدَأْتُ بعد أن شاهدته أكثر مِن مرَّة أقرأ وأسأل كثيرًا عن الإسلام.. قبل إسلامي لم أكن أرى حرجًا في أن أرتدي الْملابس الْقصيرَة أو الْعاريَة خارج الْبيت - رغم أني كنت مسيحية مُتَديِّنَة؟! أَمَّا الآن فإني أدعو الله في كل لحظَة أن يُسَامِحَني على هذه الأخطاء وأتمنى أن أقول للنَّاس الَّذِين يَرتَكبون الْمَعاصي لماذا لا تتَّبِعون تَعَاليم الإِسْلام، إنَّه دين بسيط وعظيم وهو يحمينا من هذه الأخطاء كما يحمي عالَمنا من الشُّرور)

٣- (ليندا - ٣٠ عاما) تعترف.. شيئا واحدا كانت تعرفه عن الإِسْلام والْمسلمين، فهؤلاء الْمسلمون إرهابيون، مُتَخصِّصون في خطف الطائرات وإشاعَة الرُّعْب في أي مكان يتواجدون فيه، وكانت مفاجأَة لها عندما قال لها "يحي" صديقها الْبريطاني الْمسلم: إن الإِسْلام يعترف بالْمسيحيَة وباليهوديَة كَدِينَيْن

سَمَاوِيَّيْن، وإنه يحترم أنبياءهما وأتباعهما، وبدأتُ أسأل "يحيى" كلما الْتَقَيْته عن هَذَا الدِّين الَّذِي يعتنقه والَّذِي اكتشفْتُ أنَّه دين حب وسلام ورحمَة، وليس دين إرهاب أو دماء، ثم تعرفت على بعض الشّعائر وتبيَّن لها خُلَوُّها من التَّعْقيد.

- تسأل ليندا: لماذا لا تحرصين على وضع غطاء الرَّأس مثل باقي زميلاتك ؟؟.
- أنا ملتزمَة بقواعد الْملابس الإسْلامِيَّة فيما عدا غطاء الرَّأس فهذا صعب جِدًّا.. بسبب ظُروف عملي، وأنا أعرِف أني مُخطئَة فِي ذَلِكَ، ولكنِّي مُضْطَرَّة لأَنَّ الْعمل فِي بلدي فَرَنْسَا يَتطلَّب ذَلِكَ، وأنا مُلتزمَة بنظام بلدي، وأعرف أنَّ الله يغفر للمُضْطَرِّ! وطبعًا أنا أُغطِّي رأسي أثناء الصَّلاة وأثناء وُجُودي داخلَ الْمسجد، وأدعو الله أن يساعِدني على الالتزام بهذا فِي كلِّ وقت كما ساعدني من قبلُ على الابتعاد عن شُرب الخمر، كما أكسبني سلوكا هادئا وصبورا، وكنت عَصَبيَّة جِدًّا قبلَ هَذَا.

٤- اسمها (جاكرو) ومنذ أكثر من عشرَة أعوام عرفتْهَا أديرَةُ الرُّوم الْكاثوليك كراهِبَة تَقِيَّة كرَّست حياتها لخدمَة الرَّبِّ.. وإلى أعماق إفريقيا تسافر لتكون فِي خِدمَة الإفْريقِيِّين ترعى فقراءهم وتُداوِي مَرْضَاهُم إلا أنَّ الأمراض داهمَتْها بسبب حرارَة الْجوِّ فعادت إِلَى أسكتلندا حيث عمِلَت فِي مجال رِعايَة الْمُسِنِّين. وبعد ثَمانِ سنوات من حَياة الرَّهْبنَة وقَبْلَ أنْ تُلْقِي الْقَسَم الْكبير، قرَّرت الرَّاهبَة التَّقيَّة أن تترك الدَّير بعد أن

فشلت فِي أن تُقْنع ضميرَها بأن هَذَا هو الطَّرِيق، وتمضي السَّيِّدَة جاكرو والَّتِي اسمها الآن (حَليمَة).. فِي حديثها حول تجربَة اعتناقها للإسلام فتقول: الإسلام هو الدِّين الَّذِي يسمح لك "بالتَّقَرُّب إِلَى الله بغير قُيود فأنت حُرٌّ فِي اختيار مَنْهَجِك وحَيَاتِك الَّتِي تُحقِّق لك فِي النِّهايَة هدفًا واحدًا عظيمًا هو مرْضَاة الله. فالإسْلام لا يشترط أن تنعزل اجتماعيًّا عن حياَة النَّاس حتَّى تكون مُؤْمنًا صالِحًا بل هو يَأْمُرك أن تُمارِس حياتك الطَّبِيعِيَّة. أَمَّا دُسْتور الإسْلام وهو الْقُرآن فهو كتاب صريح وواضح وواقعي وتَأْتِي السُّنَّة النَّبويَّة فتفسر الآيات وتُوضِّح مضمونها. كانت تجربَة الصوم عظيمَة لِي، شعرت معها بصفاء عجيب يَغْمُرُني، وارتاحت نفسي وبدأت روحي تَسْمُو"

فِي هَذَا الطَّقْس النِّسائِي الْفاقِع تمتَّع الصَّغِير عَلِيّ بأحلى أوقاته هو الصّغَار فِي مثل سِنِّه الشِّيكولاتة والْبُنْبون، وفوق ذَلِكَ الْقُبُلات والْحنان.. كان يَسِير مَعَ أُمِّه (زوجتي) وفي كُلِّ مرَّة يتلقى قُبلَة من جَميلَة، أقترب منه وأُقبِّله فِي نفس الْموضع لاحظَتْ زوجتي فأطلقت ضَحِكَة وهي تربُتُ على كتف الصَّغِير.

- أبوك النَّهارده فاكرك بكل خير.

انشرح قلبي لِبدَايَة الْوصال، فأمسكتُها من وسطها بِحبِّ.. وسرنا ثلاثَتُنا وَسَط الزِّحام.

- قول لها يا عَلي. أنْتِ الخير والْبَرَكَة.

كانت زوجتي قد أَوْجدت لِنَفْسها نشاطا مَعَ أُخريات وهو تعليم ربَطات الْحِجَاب، لأكْتَشِفَ أنَّ الْمرأَة الْمُسلمَة صنَعَت عَالَمًا من الْموضَة، فهُنَاكَ الرَّبطَة الْمِصريَة، وهُنَاكَ الْخَليجِيَّة، وهُنَاكَ الرَّبطَة باستعمال نوعين من الْقُماش. والغريبُ أنَّ النِّساء كن يعرضن على الْفرنسيات الْمسيحيات بسذاجَة تجربَة ارتداء الْحجاب!! والفرنسيَّات سعيدات بالتَّجْربَة ويتَصَوَّرْن فوتوغرافيا بالْحِجَاب!! تمامًا كتجربة التَّصوير للسياح عند الأهرام بالعقال الْعربي فوق الْجَمَل، وحينما أبدت بعض الْفرنسيات رغبَة فِي شراء الْحِجَاب، تعاونت النِّساء الْمُسلماتُ فأعطيْنَه لهُنَّ هَدِية ، ولم يَنْسيْن أن يقولنَّ: إنها هدِيَّة فِي الله !!.

لا أعرف كيف ظهرت وسط ذلك.. الْفَرَنْسِيَّة الْملهوجَة كثيرَة الْحركَة والقلق والَّتِي أخذت آخر سيجارَة من سجائري الْمنتول وعلَّقَت وهِيَ تُدَخِّنها فِي نَهَمٍ بعبارَة: ألا زال موجودًا هَذَا التّبغ السيئ؟ ثم كيف أنسى لها أنها أخرجت لِي أصبعها الْوسطى من خلف ظهرها !!.

فكَّرتْني زوجتي حينما قالتْ أنَّها باحِثَة فرنسيَة مَسِيحِيَّة مُهْتمَّة بالْبحث فِي (الْحِجَاب) وأنها أهدتْها حجابًا من قطعتين من الْقماش بألوان زاهيَة، ولكنها "كثيرَةُ الرَّغْي" وطلبَتْ منِّي أن أُسْعِفها باعتباري "سِيبَوَيه" الْفَرَنْسِيَّة كما سبق وأن أشعْتُ لها؟؟ ولكنِّي أخذتُ ثأري بتحويلها على جزائري ذو لحيَة كثيفَة، لينْتَقِم بطريقَته من تَدخُّل الْغرب، وبخَاصَّة فَرَنْسَا - فيما أفرزتْه التّجربَة الدِّيمُقْرَاطِيَّة فِي الْجزائر من فوز للإسلاميين أجهضه تدخل الْغرب- !! لأرد عَلَيْهَا أُصبعها الْوُسطى الَّذِي أخرجتْه من خلف ظهرها !!.

اليومُ الثَّالث:

بدأ اليوم بِمُهَاتَرات بين الاتِّجاهات الإسلاميَّة بما يوحي بأن "الشَّيْطان" عرف المكان.. وبدأ الوسواس بالسُّؤال: لِمَا نقدم الدَّنيَّة فِي ديننا؟ كانت البِدايَة من الجزائريين.. وانضم لهم المصريون والإيرانيون. دون باقي الجاليات الإسْلامِيَة! لا يوجد إسلام فرنسي وآخر إنجليزي؟! يوجد إسلام واحد.. الإسْلام لا يتلَوَّن بلَوْن الأرض؟! أن يَكُون عنوان المؤتمر "من أجل إسلام خاص بفَرَنْسَا" فهذا خروج عن المِلَّة؟! وَأُدُ الفِتنَة محاضرَة موضوعها (ما هدف الشَّريعَة الإسْلامِيَّة ومحورها بل هدف كل الشَّرائع السَّماويَّة؟!).

يقول المحاضر: النَّص صريح فِي القرآن.. يقرر بوضوح أنه العدل.. بناء على ذَلِكَ فإن النَّظر الإسْلامِي الصائب والالتزام الأمين هو ذَلِكَ الَّذِي يمضي فِي التَّطبيق سالِكًا طريق العدل والحُريَّة مبتدئا بمدارجه ومنتهيا إلَى مقاصده، فقد ذكر ابن القَيِّم في (أعلام المُوقِّعين): إن الله أرسل رُسُله وأنزل كتبه ليقُومَ النَّاسُ بالقسط، وهو العدل الَّذِي قامت عليه السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدِلَّة العدْل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثَمَّ شرع الله ودينه ورضاه وأمره.

وابن تيْميَة هو القائل: إن أمور النَّاس تستقيم فِي الدُّنْيَا مَعَ العدل الَّذِي فيه الاشتراك فِي أنواع الإثم- أكثر مِمَّا تستقيم مَعَ الظُّلم فِي الحقوق وإن لم تشترك فِي إثم؟! واستشهد بمن قال: إن الله يقيم الدَّولَة العادلَة وإن كانت كافرَة، ولا يقيم الدَّولَة الظَّالِمَة وإن كانت مُسْلِمَة... ثم قرَّر أنَّ الدُّنْيَا تدوم على العدل والكفر ولا تدوم مَعَ الظُّلم والإسْلام.

لم يُعجبْنَا بالطَّبع أن تكون الخُلاصَة أن الله يقيم الدولَة الْعادلَة وإن كانت كافرَة، ولا يقيم الدولَة الظالِمَة وإن كانت مسلمَة؟! فالدول الظالِمَة غير الْمسلمَة قائمَة؟! ولذا قال الْمُتحمسون: "اللهُ يفعل ما يشاء" وقال بعض الْمتخصصين: إن هَذَا رأي للمعتزلَة، يريدون أن يجبروا (الله) تجلى وتنَزَّه، على فعل ما يروه هم مثالي ؟! ولكنه لا يحيط به الإنسان علما. يملك الْقضاء والقدر، والعسر واليسر.. ويجعل ذلك كله فتنَة ليختبر النَّاس.

كذلك حدث خلاف حول الاستِشهاد بالْفَقيه الْحَنَفي "ابن عابدين" حين أفتى فِي حَلِّ نزاع اثنين على طفل أحدهما مسلم، والثاني غير مسلم حين حسم الأمر لصالِح غيرِ الْمُسلم لأنَّه ادَّعَى أنه ابن له. مُعْتَبرا أنَّ تنْشِئَة الطِّفل على حُريَة ولو على غير دِين الإِسْلام أفضل من تنشئته على الْعُبودِيَّة فِي ظِل الإِسْلام !!.

ولكني أُعجبْت به رغم قِدَمِه، فقد كان الرَّجل واعيًا بأهمِّيَّة قيمَة الْحُرِّيَّة عندما وَاجَه ذَلِكَ التعارض بين الْقِيمَة والْمِلَّة.

عَادت الْفِتنَة بِوَرقَة عمل أثارت الْحَفِيظَة الْفَرَنْسِيَّة، الأَمر الَّذِي جَعَل الأَمْن يَظْهر بِقَبْضَة شديدَة. كانت ورقَةُ الْعَمَل تتحدث عن "الاسْتِشْراق ودوره ضِدَّ الإِسْلام" حيثُ أرجعت تاريخ الاستشراق فِي بعض الْبلدان الأوربيَّة إِلَى الْقرن الثَّالِث عَشَر الْمِيلادِي، والسبب الرَّئيسِي الْمُباشِر الَّذِي دعا الأُوربيين إِلَى الاستشراق هو سبب ديني فِي الدَّرَجَة الأولى؛ فقد تركت الْحرب الصَّلِيبيَّة فِي نفوس الأُورُبِّيين ما تركت من آثار مُرَّة عميقَة، وتَمَّ ربط ذَلِكَ باليونسكو.؟!.

لِتُصبح - مُفْتَريات اليونسكو - على الإسْلام، نار الله المُوقدة؟! .

فما جاء فِي موسوعَة اليونسكو (تاريخ الجنس البشري وتقدُّمه الثقافي والعلمي) وفي الفصل الثَّالِث من المُجلَّد الثَّالِث: (الحضارات الكبرى فِي العصر الوسيط) وهذه المُوسوعَة كَتَبَ فصُولَها: جاستون فييت وفاديم الييف وفليب وولف وجان نادر، والفصل العاشر من هَذَا المُجلد خاصٌّ بالعرب وقد سَوَّدَ كاتبُه صفحات هَذَا الفصل بمِدَادٍ هو مَزِيج من التَّشْويه لتاريخ الإسْلام والافتراء على سيرَة نبي الإسْلام وخلفائه الرَّاشدين. إنها مُحاوَلَة لإنجاز تاريخنا الطَّويل فِي نَيِّفٍ و٣٥٠ صفحَة؟!.

(جاستون فييت) المؤلِّف الفَرَنْسِي- فِي موسوعَة (اليونسكو) زعم أن الإسْلام احتفظ فِي رُكن من أركان الكَعبَة بالصَّنَم الرَّئِيسي للمَكِّيِّين ألا وهو الحجر الأسود!! ويبدو أن (جاستون فييت) كاتب الفصل الخاص بالإسْلام كتب ما كتب على الأرجح وهو متوتر الأعصاب. فمن مزاعمه الَّتِي هِيَ أهون من أن يُرَدَّ عَلَيْهَا ادِّعاؤه أنَّ الشَّريعَة الإسْلامِيَّة حتَّى معظم القرن الأوَّل الهجري لم يكن لها وجود بالمعنى الدقيق لهذه العبارَة؟! ويحاول الكاتب أن يُسْنِدَ زعمَه بأنَّ المظاهر الفنِّيَّة للشَّريعَة لم تكن موضع اهتمام من جانب المسلمين، ومن ناحيَة أخرى ترتَّب على هَذَا وذاك أنَّ المسلمين اضْطرّوا إِلَى انتحال القدْر الكبير من النُّظم الإداريَّة والقضائيَّة من البلاد الَّتِي فتحوها، ثم يُوَاصِل المستشرق الفَرَنْسِي افتراءه فيَدَّعي أنَّ مصادر الشَّريعَة الإسْلامِيَّة هِيَ القانون الرُّومَاني البِيزَنْطِي والقانون الفارسي السَّاسَاني وقانون التَّلمود بالإضافَة إِلَى القَوَانِين الدِّينِيَة الخَاصَّة بالكنائس الرَّاقيَة.؟!.

""ونَصِيحُ بالرَّفْض""

الإسْلام كما تقول (موسوعَة اليونسكو) تركيب مُلَفَّق من المذاهب اليهوديَّة والْمَسِيحِيَّة بالإضافَة إلَى التَّقاليد الْقوميَّة الْوَثنيَة الْعربيَّة الَّتِي أبقى عَلَيْهَا كطقوس قَبَلِيَّة تجعلها أكثر رسوخا فِي الْعقيدَة؟!.

""ونَصِيحُ بالرَّفض"" .

تَزْعُمُ موْسوعَة (اليونسكو) أن الإسْلام لم يُنْصِف أهلَ الذِّمَّة وأنَّ الإسْلام عَمِل على أن يظَلَّ الْوضع الاجتماعي للذِّمِّيِّين وضعًا سَيِّئًا مَهِينًا، ويَسْتَدِلُّ الْكاتب بالجِزْيَة الَّتِي فُرِضَت ويرَاها ضَرِيبَة بَاهظَة أَثْقَلت كَوَاهِل الذِّمِّيِّينَ ثم يَزْعُم أن ازدياد انتشار الإسْلام بين الذِّمِّيِّينَ أدَّى إلَى تناقص الدَّخل من هذه الضَّرَائِب.

""ونَصِيحُ بالرَّفْض"" .

ويكون الْقرار الْجماعي السريع الرَّد على مفتريات (اليونسكو) ودائرَة معارفها ومحرروها من الْمستشرقين الَّذِين يغلب عليهم التَّعصُّب، دون أنْ نعرف – كَيْف؟ وَمَن ؟! أهو مُجرَّد تفريغ!.

كانت الخِطْبَة بالفَرنْسِيَّة ومع الصَّيْحات الْمُتَابِعَة لنا، وكون الْمركز الرَّئيسي لليونسكو بباريس ردَّ فِعْله على الْمُتَفرِّجين من الْفرنسيين وقد قُوبِل ذَلِكَ بمُضَايقات فرنسيَة بَدَت طبِيعيَّة من الأمن بالتَّأكُّد من أوراق الإقَامَة، وعدم وجود هِجْرَة غير شَرْعيَّة، وعمل الْكَارِدُونَات بِحُجَّة النِّظام!! الأمر الَّذِي أدى لمناقشَة بيننا. وكان للسوريين رأي عاقل، يرى أنَّ فَرَنْسَا والغرب تقصد بالإسْلام ممارسات الْمسلمين على الأرْض بينما نسوق لهم النُّصوص الْمُقَدَّسَة والعقيدَة، وهذه طريقَة لا تُفيد لأنهم غير مُلْزَمِين بنصوص عقائدنا – فإذا جاءت اللغة الْفرنسية فلْنَعِي أنَّنا نُدِير حِوارًا ولا نُكلِّم أنفسنا ؟!.

أُعْجِب إمام الْمسجد الْكبير "مسجد ليون" الَّذِي حضر الْمؤتمر بما طرحه السُّوريون فأعلن أنَّ مِن الْكُتب الْمَعْروضَة، كتب تَرُدُّ على كل ما جاء فِي موسوعَة اليونسكو [1] وأنه قرأ بالأمس كتابا منها ل م صوفي أبو طالب عن فِريَة أنَّ الشَّرِيعَة مُسْتَقاَة من الْقانون الرُّومَاني، وقدّم شابٌّ فرنسي يُدعى جون جورو اعتنق الإِسْلام من ٧ سنوات ليقرر بأنه سمح بتأسيس الْمعهد الْفَرَنْسِي للدراسات الإِسْلامِيَة، وهو معهد يهتم بالرُّوح الْموجودَة بالإِسْلام وليس بالشَّكْل كالْحِجَاب والْجِلْباب وبالتَّالي فهو أقرب للصُّوفيَّة وقال:

بخاصَة، أننا أبناء مجتمع غربي تحكمه قوانين عَلمانيَّة وهذه الْحالَة من الشّفافيَة والسماحَة هِيَ الأفضل لمؤتمر شعاره: "من أجل إسلام خاص بفَرَنْسَا" التّصوف - فيما أعتقد - قادر أن يَكُون سفير حقيقي للإسلام مَعَ الْعالَم.

اليَوم الرَّابع:

أصاب الْقلق بعض الْجاليات الإِسْلامِيَّة فِي باريس عندما صدرت مجلَّة (لوبوان) الْفَرَنْسِيَّة وعلى غلافها رسم كبير زعمت أنه يمثل النَّبي محمد - صلى الله عليه وسلم- وابنته فاطمَة، وزوجها علي بن أبي

---

(١) اليونسكو- الاسم الْموجز الَّذِي اشْتُهرت به وهو الْحروف الأولى للكلمات الَّتِي يتألف منها اسم الْمُنظمَة فِي اللغَة الإنجليزيَة إحدى الْمنظمات التّابعَة للأمم الْمتحدَة للتربيَة والعلوم والثقافَة.. تأسست فِي عام ١٩٤٦ لدعم التّعاون بين الأمم عن طريق التّربيَة والعلوم والثقافَة، ولتعزيز الاحترام الْعالَمي للعدل وحكم الْقانون وحقوق الإنسان والْحريات الأساسيَة.وهى تعمل على إنماء التّبادل الثقافي بين الدّول وجعل الأعمال الْفنيَة والأدبيَة والفلسفيَة فِي تناول الشّعوب.

طالِب وتحت عنوان كبير "الحياة الحقيقيَّة لمحمد" فالرَّسم ممنوع للأنبياء جميعًا فِي التقاليد الإسْلامِيَّة ولكن الْبعض قرر أنها ليست مجرد التقاليد الإسْلامِيَّة بل إن التصوير محرم بالسُّنَّة!!.

حينما احتد الخلاف حول: هل الرَّسم كالتصوير؟! تركتُ الْمَكَان وزوجتي لنشاط اجتماعي آخر للمؤتمر انضممنا له وهو "زيارَة الْمرضى الْمسلمين من جميع الْجنسيات بمستشفيات فَرَنْسَا" كانت مجموعتنا تتكوَّن من ٧ أشخاص أحدهم إيراني، علَّق تَعْليقا مُرَوِّعًا بالنِّسْبَة لِي ونحن فِي باص زيارَة الْمستشفيات وهو يقلب، ويبحلق، ويقرأ فِي نسخَة من مجلَة (لوبوان) الْفَرَنْسِيَّة:

- هل لاحظتَ الشَّبه فِي الرَّسم بين وجه الرَّسول ووجه الإمام عَليّ ؟!.
- نعم تكاد تكون الْملامح واحدَة فِي الْعيْنين والذقن، هل لهذا معنى ؟!.
- الرسم مدروس، ومجلَة (لوبوان) الْفَرَنْسِيَّة ليست سهلَة ولا خفيفَة إما أن يَكُون الرَّسام تأثر بالشيعَة الْغرابيَة[1] أو يريد أن يشير لنظريَّة أنَّ لكل نبيٍّ وصِيًّا[2] .

---

(١) الشيعة الْغُرابية تعتقد أن بين الرَّسول محمد والإمام علي تشابه خُلقي، وخِلْقي. وصل إلَى حد أن جبريل "ملك الْوحي" أخطا فِي توصيل الرِّسالَة "الإسْلام".. فبدلا من أن ينزل بِهَا على الإمام علي جعلها فِي حضن الرَّسول محمد!!

(٢) هي فلسفَة دينية للشيعَة الاثنا عشرية تقوم على أنَّهُ لكل نبي وصي وأن الإمام علي هو وصي الرَّسول محمد. وأن الأرستقراطيَة فِي قريش حالت دون ذلك؟! على تفاصيل أرجعت الأمر ليوم السقيفَة بعد وفَاة الرَّسول الْكريم.

تدخَّلت لِبنانيَّة فِي الْمجموعَة، وكانت أوَّل لِبْنَانِيَّة مُحَجَّبَة أراها حتَّى هَذَا الْوقت فِي فَرَنْسَا ؟! كانت ترتدي عبائَة أنيقَة تشم فيها رائحَة الْعنبر، وحِجاب زاهي الألوان، كانت بدون مكياج وبكحل خفيف فِي الْعيون.

قالت:

هذه أوَّل مرَّة تُرْسم فيها سِتَّنا فاطمَة كيف حدث ومن يجرؤ؟!.

قلت:

الرَّسم ليس فيه فحش أو تعريض، والفرنسيون لا نُعَامِلُهم بالنَّص الْمُقَدَّس لدينا، وهم يرسمون رموزهم الدِّينِيَة الْمسيح، ومريم الْعذراء والعائلَة الْمُقَدَّسَة !!.

تلقَّيْتُ الْعِتَاب من الْعُيون حتَّى عيون زوجتي. وقف الْباص أمام مستشفى لعلاج السَّرَطَان، كان معنا هدايا رمزيَّة، بدا تلقين الأمَّهَات لصِغَارِهن عن كَيْفِيَّة تقديمها للمرضى بابتسامَة، تلقى الصَّغِير "علي" من أمه الْمَأْمُوريَة باستعداد مُرضِي، كان هُنَاكَ تعقيم قبل الدُّخُول عبارَة عن كيس نايلون يُلْبس على الْحذاء وجونتي فِي اليد، الأطفال اعتقدوا أنها لعبَة!.

الألَمْ واليَأْس فِي عيون الْمرضى، لكنه عند مُرَافِقِيهم أضعاف مضاعَفَة؟! وجودُنا مَعَ الْفرحَة فِي عيون الأطفال وهم يقدِّمون الهدايا خفَّف كثيرا، النِّساء فِي الْمجموعَة لهن وقع السحر، فبينما الرِّجَال فِي صمت، كن هن فِي حركَة وثرثرَة وقُدرَة على تجاوز محنَة الْمرض

الخبيث !! التَّنوع فِي نساء الْمجموعَة من حيث اللغات والجنسيات جعلهن يعملن فِي تناغم، زوجتي تحتضن زوجَة مرافقَة لزوجها الْمريض، هو ضابط مصري من الْمَظَلَّات لا أعرف كيف تستدعي زوجتي النَّص الْمُقَدَّس فِي حديثها فيكون نسمَة، بلسم شفاء، بردا وسلاما !! .

- الْمؤمن مصاب.. ومع الْعسر يسر. ثقي فِي شفاء الله.
- إنه يَنْقص كل يوم ١٥٠جراما، إنه بطل رياضي وليس مجـرد ضـابط عادي.

اللُّبْنَانيَّات يُدِرْن مَعَ الْمرضى أنفسهم الْحديث بعُذُوبَة وفُكَاهَة.. لقد لغين من أذهانهن أنهم مرضى، فهل حروب لبنان التَّاخليَة أعطتهن مَيْزَة الخِبرَة ؟! كن فوق الْموقف بالنِّسْبَة للرجال الْمرضى الَّذِين بدون مُرافِقين، وَصَلْنَ معهم لِحَدِّ التَّدْلِيل ومُسَاعدَة الْمُمَرِّضات، والْمُحايلَة لتناول الدَّواء والطَّعام.. وصل الأمر لحَدِّ الْعِنَاق والقُبلَة على الرَّأْس. قد يدخلنَ الْجَنَّة بفعلهن!!.

أعتقد ذَلِكَ..فأنا نوع من الْبشر لا أرى إلا اللهَ الرَّحيم.

الْمرضى الآن أفضل، لمعَة الْعيون فيها بَصِيص أَمَل أيَّتُها الْمرأَة ما سِرُّكِ ؟! لم يُسْمَح لنا ولم يكن لَدَيْنا كرجال نفس الْقُدرَة والهِمَّة مَعَ الْمَريضات!! كان سُقُوط الشَّعر كَأَحد أعراض هَذَا الْمرض جعلهن يرفضن مُجَرَّد الزِّيارَة والسَّلام فانشغلت النِّساءُ بالنِّساء والرِّجال معًا.

١٤

قلت لنفسي وأنا أُقَلِّب "مجلَّة (لوبوان) الْفَرَنْسِيَّة" باستراحَة الْمستشفى: إذا كان ما حدث حدث لمجرد الرَّسم فماذا داخل النَّص؟! وبدأتُ الْقِراءَة.

تبدأ الْمَجلَة مَلفَّها بِالقول: لم يتردَّد اسمُ رَجُلٍ مثلما يتردد اسمُ مُحَمَّد، ولم يُؤَثِّر رجل فِي أَرْوَاح وقلوب هَذَا الْكَمِّ مِنَ الْبَشَر مثلما أَثَّر مُحَمَّدٌ.. اسمه يتردد يوميًّا على أَلْسِنَة مليار مسلم حول الْعالَم، وحاليًا يُعد دينُ الإِسْلامِ الدِّين الثَّاني فِي فَرَنْسَا بعد الْمَسِيحِيَّة.

مِن الْمُستَحِيل تَحْدِيد الْيَوْم الَّذِي وُلِدَ فِيه مُحَمَّد يُقَال إنه ولد فِي مكَّة وقتَ حُكم الْمَلِك كسرى الأَوَّل عاهِل الْفُرس أي قبل عام ٥٧٩ ومن الْمُرَجَّح أن يَكُون قد وُلِدَ بين ٥٦٧ و٥٧٣ وَيُؤَكِّد الْمؤرِّخون الْعَرَبُ كل ما حدث فِي مَكَّة فِي عام الْفيل الشَّهِير الَّذِي من الْمُرَجَّح أنه كان عام ٥٧٠، فِي ذَلِكَ الْعَام كان مَلِكَ الْيَمَن أَبْرهَة يَسْتَعِدُّ للدُّخول إِلَى مَكَّة واستطاع تدبير جيش ضخم واصطحب معه فِيلا خارِقَ الْقُوَّة ثُمَّ تَوَجَّه إِلَى مَكَّة، وتَفْشَل حربُ أَبْرَهَة الْمقصود بِهَا الْكعبَة ذاتها بِإِرْهَاصَة تُشْبه الأَسَاطِير سَجَّلَها الْقرآن فيما بعد، ولا تكتمل الْقِصَّة إن لم نذكر أنه عند دخول أبرهَة إِلَى مَكَّة وجد نفسه يُوَاجه رجلا قوي الْمِرَاس أَلا وهو عبد الْمُطَّلب الَّذِي حذَّر أبرهَة مِمَّا سيُلاقِيه إن حاول تدنيس الْكعبَة، وَكان عبدُ الْمُطَّلب ذَلِكَ الرَّجل الشُّجاع هو جَدُّ الرَّسول مُحَمَّد. كان ابنه اسمه "عبد الله" وتزوَّج عبد الله من فتاة من أسرَة كريمَة، وكان اسمها "آمنَة" ونتج عن هَذَا الزَّوَاج ولد واحد وهو

مُحَمَّد، لكن عبد الله لم تُتَح له الْفرصَة لِرُؤْيَة ابنه ، فبعد زواجه بفترَة قصيرَة، وفي أثناء عودته من رحلته من سوريا تُوفِّيَ وترك لزوجته خادمَة كبيرَة السِّن، وخَمْس ناقات وجَنِينًا، وَيَقُول الْمُؤَرِّخ الإِسْلامي ابن سعد: إن آمنه قد سمعت صوتا يَأمُرُها أن تُطْلِق على ابنها اسم (أحمد) وتُوجد نظريَّة تقول: إن رجلا عربيًّا مسيحيًّا يتحدث اليُونانيَة أشار على آمنَة بذلك لكي يتواءم اسم مُحَمَّد مَعَ الإنجيل، وفيه على لسان الْمسيح لأتباعه: (إذا لم أتركم لن يأتي (الْبيريكليتوس) إليكم، لكن إذا تركتكم سوف يبعث إليكم، وبمجيئه سوف يفرض على الْعالَم الْعدل والْحِكمَة) *.

ومعنى كلمَة (الْبيريكليتوس) اليُونَانيَّة أحمد أو مُحَمَّد أو محمود، وبالطَّبع اعترض الْكثير من الْمسيحيِّين على هذه التَّرجمَة وقالوا: إن الْمسيح تفوَّه بكلمَة مختلفَة وإن الْكَلِمَة نُقِلت خطأ وإن الإنجيل لم يتنبأ قطُّ بمجيء مُحَمَّد. ومن جهَة أخرى قال أحد صحابَة مُحَمَّد "الشَّاعر حسَّان بن ثابت" كنت فِي السَّابعَة أو الثَّامنَة من عمري عندما.

سمعت فِي شوارع الْمدينَة رجلا يهوديا يصرخ بأعلى صوت مُنادِيا رفاقَه فِي الدِّين، وعندما تجمَّعوا كلُّهم قال لهم: فِي هذه الليلَة بَزَغ نَجْمُ (أحمد) وهو نبأ مَوْلِده.

---

* يقصد هُنَا ما جاء فِي إنجيل "برنابا" الَّذي لم تعترف به الْكنيسَة ؟!

وفِي سِنِّ السَّادسَة فقَدَ مُحَمَّد والدته أثناء عودتها من رحلَة إِلَى الْمدينَة ، وانتقل مُحَمَّد ليعيش مَعَ جدِّه عبد الْمطلب الَّذِي تُوُفِّي بعدها بعامين. ومع أبي طالِب سافر مُحَمَّد إِلَى سوريا فِي عامه الثَّانِي عشر على رأس قافِلَة تجاريَّة، وعند وصولهم إِلَى جنوب دمشق توقَّفُوا وكانت هذه الْمنطقَة مَقَرَّ وقوف الْكثير من الْقوافل ومركزًا للكثير من الْمسيحيين والْتَقى مُحَمَّد براهب مسيحي اسمه (بحيرى) وهذا اللِّقَاء مذكور فِي الْقرآن فِي سورَة الْمائدَة * وتحكي الْمجلَة بعد ذَلِكَ أن بحيرى طلب من مُحَمَّد الرُّجوع إِلَى مَكَّة، ثم قام بفحص ظهره ووجد دليلا أَقْنَعَه بنبوَّة مُحَمَّد فقال الرَّاهب لأبى طالِب..(ارجع إِلَى بلدك واحرص على هَذَا الصبي من اليهود فوالله إن رأوه سوف يلاحظون ما لاحظته أنا ويضرُّونه ضررا بالِغًا..) ومن هذه النُّقْطَة يَتَّضح أن صلَة مُحَمَّد بالْمَسِيحِيَّة بدأت مُبكِّرًا.؟!.

تعوَّد مُحَمَّد على عادَة جديدَة وهِيَ ذهابه كثيرًا إِلَى غار حِراء الَّذِي يُوجَد على بُعد عدَّة كيلو مترات من شمال شرق مَكَّة، حيث كان يتأمَّل "يتحنَّث" ويتعبَّد وتَصِف الْمجلَّة أيضًا كيف نزل على سيِّدنا مُحَمَّد - صلى الله عليه وسلم- الْوحي.

فتقول: وفِي يوم تمَّ تحديده على أنه يوم ١٩ مارس عام ٦١٠ م جاء إِلَى مُحَمَّد الْقدَرُ الْمكتوب، ونزل عليه الْوَحْي الإلهي. حدَّث هو بذلك

---

* لم أجد فِي تفاسير الْقرآن ما يشير لهذا الْمعنى، ولكن وجدت إشارات غير مباشرَة بالسورَة آيَة: ٨٢،٥٩،٤٧

فقال: فِي ليلَة من الليالي الَّتِي كنت أقضيها فِي غار حِرَاء جاء إِلَيَّ جبريل ومعه كلام مكتوب وقال لِي: اقرأ.

ومن هُنَا وُلد الْقرآن، وقد طلب الْقرآن من مُحَمَّد الهدوء فِي تصرفاته والحفاظ على حكمته وعدم التّعجُّل فِي قراءَة الْقرآن.

من عام ٦١٠ م حتَّى ٦١٣ م كان مُحَمَّد رجلا يكتنفه الْغموض ولم يشكَّ أحد أنه قريبًا سيقلب موازين مَكَّة تماما وببطء كَوَّن مُحَمَّد دائرَة تكوَّنت من أربعين مُسلما تبعوا دينه الْجديد. مُحَمَّد أراد إعادَة تشكيل نظرَة مَكَّة إِلَى الله، وتوضيح أعماق الإيمان بالله وضرورَة وضع ذَلِكَ الإيمان فِي إطار فعلي فِي (الْحيَاَة الْعَمَلِيَّة).

ويقول (تور اندري) لقد أكَّد الْمسيح رسالَة موسى أمَّا مُحَمَّدٌ فقد أكَّد رسالَتَي اليهود والْمسيحيِّين معًا.

ولكن كيف يمكن إيجاد الصِّلَة الأصليَة بين قوم الْعرب وقصص الإنجيل؟.

عبقريَة مُحَمَّد تكمن فِي هذه النُّقطَة بالذَّات فسيِّدُنا إبراهيم هو الاسم الَّذِي يدل على هذه الصلَة؛ فقد أخبر الله مُحَمَّدا بالْخلقَة الْمفقودَة عندما أنزل عليه سورَة الْبقرَة. فبالتّالي لم يكن سيدنا إبراهيم يهوديا، بل كان حنيفا أي من أوَّل النَّاس الَّذِين اعتقدوا فِي وُجُود إله واحد لا إله إلا هو، أي من أوائل الْمسلمين. وزيادَة على ذَلِكَ كان إبْرَاهِيم والد سيدنا إسْحَاق أبا قوم اليهود. وهو أيضًا والد إسْماعيل من جد أقوام الْعرب فبالتّالي يُمثِّل مُحَمَّد صلَة فوريَّة بين إبْرَاهِيم والعرب. ولكن لله أسبابه فِي إعطاء كل قوم تعاليم تختلف عن غيرهم من الْقوم،

فمُهِمَّة مُحَمَّد الأساسيَّة كانت تتمثل فِي إعطاء الْعرب إرشادا وتعاليم يتَّبِعونها !! ولهذا السبب بعث الله بآياته لمُحَمَّد باللُّغَة الْعربيَّة، ولغَة عربيَة نقيَّة وفصيحَة.

في الْفترَة من يونيو إلَى سبتمبر عام ٦٢٢ قام حوالي سبعون مسلم بالرحيل عن مَكَّة متوجِّهون إلَى الْمدينَة ووصل مُحَمَّد أخيرًا فيما يعرف "بحادث الهِجرَة" ففي يوم ٢٢ سبتمبر عام ٦٢٢ م توجَّه مُحَمَّد إلَى الْمدينَة ومعه صديقُهُ وسَاعِدُه الأيمن (أبو بكر الصِّدِّيق) فِي رحلَة بِهَا الْكثير من الْمَخاطر ووصل مُحَمَّد. وبدأت أعظم مرحلَة من تاريخ الإسلام مرحلَة الهجرَة، فمنذ ذَلِكَ اليوم عام ٦٢٢ بدأ نظام الشُّهور الهجريَّة الَّذِي يتبعه الْمسلمون.

وقد حاول مُحَمَّد إرساء علاقات طيِّبَة مَعَ اليهود والتَّقرب إليهم لكن اليهود لم يُعطوه الْفُرصَة فظلَّ مُحَمَّد على علاقاته الطَّيبَة مَعَ الْمسيحيين الَّذِين كانوا يمقُتون اليهود ويتَّهمونهم بأنهم قتلوا الْمسيح.

لكن الَّذِي يظن أن مُحَمَّدا كان يحيا فِي غِنا ونَعِيم مُخْطئ فهو وأتباعه كان عليهم الْعمل جاهدين لتَوْفير سُبُل الْعَيْش فيُقَال أثناء وجود الْمسلمين فِي الْمدينَة كان علي بن أبي طالِب يحمل الْماء للمسلمين ويحصل على ثمرَة واحدَة من الْبلح على كل دلو من الْمياه يأتي به. رفِي عام ٦٢٧ فِي الْعام السَّابع من الهجرَة أصبحت الْمدينَة دولَة لها وضعها ووزنها ومن هُنَا بدأ الْمسلمون فِي اتِّباع التَّعاليم الْعَمَلِيَّة للقرآن وتطبيقها على حياتهم لِتُساعدهم فِي حياَة ناجحَة.. وهنا وُلِدَ الْمجتمع الإِسْلامي (الأُمَّة) وبتحقيق مُحَمَّد للمكانَة والسُّلطَة فِي الْمدينَة لم يبق

أمامَه سِوَى تحقيق ذَلِكَ فِي مَكَّة، ففي مارس عام ٦٢٨ قرر مُحَمَّد التَوجُّه مَعَ المُسلمين إِلَى مَكَّة فِي موسم الحج لزيارَة الكعبَة لكن القرشيين منعوه من دخول مَكَّة وطالَبوه بالتوقف والعسكرَة فِي الشَمال فِي الحُديبيَة وهنا حدث صُلح بين المُسلمين والقريشيين سمي (صُلح الحُديبيَة) نَصَّ على: ألا يدخل مُحَمَّد مَكَّة هذه المَرَّة بينما يستطيع العَوْدَة فِي العام القادم فِي مقابل إيقاف المَعارك بين المُسلمين ومكَّة لِمُدَّة عشرَة أعْوَام وقد عدَّل القُرَيْشِيّون (أهل محمد) فِي المُعاهدَة فشطبوا النَّص على نبوَّة محمد فيها !!

وفي يوم ١١ يناير ٦٣٠ م دخل محمد إِلَى مكَّة فِي سلام، وبعد حصوله على ولاء أهل مكَة توجه مرَّة أخرى إِلَى المدينَة، وبعد أن تأكد محمد من أمن المنطقَة للمسلمين، عاد محمد مرَة أخرى إِلَى مكَة من أجل الحاج وهو ركن مكمل فِي دينه وألقى (خطبَة الوداع) فِي مارس ٦٣٢ م، وبعودته للمدينَة أصاب محمدا المرض، ومكث فِي بيت عائشَة الَّتِي كانت أحب زوجاته إِلَى قلبه، وفي يوم ٨ يونيو عام ٦٣٢ م انتقلت روح محمد للرفيق الأعلى*.

* كل المذكور عن مجلّة (لوبوان) الفرنسيّة - مُترجَم بِدِقّة كما نشر، فليس في الأمر تصرُّف، أو خيال روائي.

١٥

انتهت الزيارَة، وفي الْباص انفجر نساء الْمجموعة فِي حنق ويأس ودموع، سمعن أكثر، ورأين أوضح، وتألَّمن أعمق. فالعلاج الْكيماوي يضعف النَّظر، ويؤثر بشدَّة على وظائف الْكبد، وكان موضوع فقد الإخصاب الأكثر تأثيرا!

- زوجتي: بعد اللي شفته لسه حتدخن؟ !.. ارمي الزفتة دي.

كانت تقصد السيجارَة.

- اللبنانيَّة: طيب..والضابط الْمصراوي ده عمره ما شرب سيجارَة؟ وكان بطل رياضي فِي السباحَة، وبيقفز بالْمظلات، الْقدر له أسبابه الَّتِي لا نعرفها.. كفانا الله شرَّه، ولطف بنا فيه.

- الإيراني: لا يغني حذر من قدر؟!

زوجتي: ولكن أين الْحذر لنحيل للقدر؟ إننا لا نأخذ بالأسباب !! لقد فكرتموني بعبد النَّاصر، وهو يقول لا يغني حذر من قدر، يوم النَّكسَة، وكأنه حارب ولم ينسحب جيشه!! على كل حال فأنا أفكِّر فِي مُعاودَة الزيارَة، ومن يريد نسجل اسمه، وعنوانه، فلدي وقت فِي فرنسا.

.. وتستمر: ألم تسمعوا أن الْبهجَة تقوي جهاز الْمناعَة، لقد كان الْفراعنَة يعتقدون بأن الإنسان يصل لأبواب الْجنَّة فتسأله الآلِهَة

سؤالين بِهَا يقبل أم لا.. هل شعرت بالْبهجَة فِي حياتك؟ هل تسببت فِي منح الْبهجَة للآخرين؟.

لم تنس زوجتي، الْباشا جدها - الَّذِي وزع أرضه عبد النَّاصر على الْفلاحين فيما يعرف - بالإصلاح الزراعي - فردت له أمر قديم وفي فرنسا! أحَتَّى الآن؟ ولا بأس أن تعرفنا بالْمرَة دراستها للفراعنَة والآثار.

قلت فِي حنق: ألا تمنحيني الْبهجَة وتتركيني أدخن !!

أتذكرها.. أين بهجَة "زبيدَة"؟ أين حضنك؟ أين حزنك؟ أين أياي الَّتِي ضاعت مني قبلك؟ أين علامات الشَّفايف الْحمراء فوق تبغَكَ؟!

وصل الْباص بنا إِلَى مكان الْمؤتمر. كانت مظاهر الصوفيَّة باديَة على الاحتفال، الْمغالاَة فِي الْغيب، والذكر.

والصوفيَّة هو علم الْحقيقَة وهو يقوم على أساس من الشَريعَة الإِسْلامِيَّة، وهو يتم تلقينه عن طريق الصلَة بين الشَيخ والْمريد، وهي علوم مشاهدَة وذوق، ولهم لغَة شفَّافَة تحتاج لشروح حتَّى إن كتاب الْفتوح الْمكيَّة لابن عربي تم شرحه فِي أكثر من ٤٠ كتابا لمحققين مختلفين. وكلمَة صوفيَّة اختلف فيها فقيل: إنها من كلمَة "سوفيا" اليونانيَّة ومعناها الْحكمَة.. وقيل: إنهم أهل صُفَة مسجد الرَّسول الأول فِي الْمدينَة الْمنورَة، وقد كانت هُنَاكَ جماعَة تقيم فِي الْمسجد يعبدون ويقبلون على الله فإذا نادى منادي الْجهاد خرجوا محاربين عرفوا بأهل الصُفَة.

وفي المْعنى الْعارفون بالله. وأخيرا قيل: إن الصوفيَّة من الصوف التقشف والزهد فِي الدُّنْيَا. وفي أحوالهم يقول الإمام الْغزالي: "إنهم من تولى الله أمر قلوبهم. ففاضت عليهم الرَّحمَة وانقشع عنهم الْحجب وجاءهم علم من لدنه سبحانه".

وكان مِمَّا طرق سمعي وأعجبني أنا وزوجتي حتَّى وصل بِهَا الأمر لتسجيله ما توارد أثناء الاحتفال من أقوالهم الْقديمَة.

"الدُّنْيَا كنهر طالوت لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفَة بيده لا من شرب على قدر عطشه "فافهم".

وكذلك ما قالَه أحمد بن مسروق: مَن تَرَك التدبير فهو فِي راحَة.

وسهل بن عبد الله: ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على النَّاس عيشهم. وقيل: من لم يدبر دُبِّر له. وما جاء فِي وعظ قيل: لا يكن تأخر أمد الْعطاء مَعَ الإلْحاح فِي الدعاء موجبا ليأسك فهو ضمن لك الإجابَة فيما يختارَه لك لا فيما تختارَه لنفسك، وفي الْوقت الَّذِي يريد، لا فِي الْوقت الَّذِي تريد.

وقول الشَّيخ أبو الْحسن: اللَّهُمَّ إنا قد عجزنا عن دفع الضرر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذَلِكَ من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟؟.

وعن أهميَّة الدعاء وأنه مخ الْعبادَة قيل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ عَبْد يَدْعُو بِدَعْوَةٍ، لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا". وعن الاعتماد على التَّفوس والأعمال وأنها من علامَة الشَّقاء والْبؤس "فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك قال تعالى: واذكر ربك إذا نسيت، فسبب

التعب هو ذكر النَّفس، والاعتناء بشؤونها، وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الرَّاحَة. وفي هَذَا قال صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل أحدكم الْجَنَّة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

وزعوا علينا أوراق التّهايات، كما يحدث في ختام المناسبات، كان فيها التّبشير بفقه الغربة، فقه الضرورة، فقه الأقليّة، وشعرت معها بالغربة واحتياج المسلمين لوطن أصلي لا وطن غربي بديل.

تمسكوا معلنين مسلمين في أوراقهم، بمبدأ المجتمع المحتشم، ويعتبرون أن الاحتشام هو الأصل والقاعدة في المجتمع الإسلامي، وأن الفصل بين الجنسين لا أصل له في التّعاليم !! وإنما هو سلوك نابع من التّقاليد، بالتّالي فإن المحاضرات والندوات والعمل تتم بمشاركة من المجتمع دون حائل أو عازل، ودون خلوة بطبيعة الحال. جعلوا الحجاب فقط شرط لدخول المسجد وأداء الصلاة؟! شجعوا الانخراط في المحيط الغير إسلامي، والمنطلق الأساسي لفقه الأقليّة هو كيفيّة تطبيق شريعة الله وتعاليمه ليس على مستوى الدولة ولكن في إطار الجماعة الصّغيرة المسلمة ثم صياغة فقه بنائي لا يقطع صلة الأقليّة بالمجتمع، ولكن يقيم هذه الصلة على أساس من الإدراك لطبيعة وضع الأقليّة وسط محيط الأغلبيّة مِمَّا يضيق أحيانا من خيارات الأقليّة. تصبح الخيارات الآن ليس بين معروف ومنكر، ولكن بين منكر ووضع آخر أشد إنكارا، وهو وضع تعرض له الأصوليون ودعوا في تلك الحالة الأخيرة إلى الإبقاء المؤقت على المنكر تجنبا لوقوع ما هو أسوأ منه وأنكر.

في نطاق المعاملات مثلا هُنَاكَ قضايا كثيرة تصادف الأقليّة المسلمة ماذا يفعل المسلمون الذين يشتغلون في المطاعم وليست لديهم فرص عمل أخرى بينما تقدم هذه المطاعم لحم الخنزير أو النبيذ وغير ذَلِكَ مِمَّا هو محرم شرعا، هل يستمرون في أعمالهم ويقدمون هذه المحرَّمات للناس؟ أم يتركون تلك الأعمال ويقعدون عاطلين؟.

كانت الإجابَة: يستمرون فِي أعمالهم، ويقدمون هذه المُحرمات ولكن لا يشربون ولا يأكلون بل مطلوب منهم ألا يغشون فيما يفعلون؟ !.

وجاءت تفسيرات أخرى؟! .

كل الدّول الَّتِي ترتبط بالمُسلمين بمعاهدات أو مواثيق ولا تقوم بدور المُحتل أو المُعتدي هذه الدّول جميعها هي دار عهد وأمان من النَّاحيَة الشّرعيَّة وليس لأحد بأي حال أن يصنفها بحسبانها دار حرب فواحـا من أكبر أئمَّة المُسلمين هو الإمام الشّافعي قال: إن الأصل فِي الأحكام أن الدُّنيَا كلها دار واحدَة. إن نصوص القرآن دعت إِلَى مسالمَة كل المُسالمين ونهت عن العدوان على الآخرين، ونضيف هُنَا أن تلك النّصوص قررت أن الله سبحانه وتعالى خلق النَّاس مختلفين لِحِكمَة أرادها وقرر فِي القرآن أنه خلقهم شعوبا وقبائل كي يتعارفوا. لا أن يتعاركوا، أو يتغول طرف على آخر. وأن الإسلام مُنْذُ نزل أقام سلاما مَعَ مخالفيه حين اعترف بالديانات السَّابقَة من مسيحيَة ويهوديَة واعتبر أتباعها أهل كتاب.

كان شرح مصطلح "الجهاد" مهما وواضحا وبعيدا عن استخدام المُصطلح لانطباعات الآلَة الإعلامية الغربية الَّتِي دأبت على تصوير الجهاد باعتباره فزاعَة تخيف العالم وحربا مقدسَة ضد الآخرين لا يخرج منها المرء إلا قاتلا أو مقتولا.

الجهاد الإسْلامِي الذي نعرفه فِي ديننا شيء أكبر بكثير من الحرب المُقَدَّسَة فِي المفهوم الغربي، هو ليس قتالا ضد الآخر ولكنه يبدأ جهادا للنفس ضد الأهواء والشهوات والشرور وينتهي جهادا ضد الظلم وينتهي جهادا ضد أعداء الله الذين يحاربون المُسلمين ويفتنونهم فِي دينهم.

لقد جاء رجل إلَى النَّبي عليه الصلاة والسلام يستأذن في الْجهاد، فسأله النَّبي: أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد. ولأن الْمسلم يعترف أنه يمكن أن يجاهد بقلبه ولسانه وماله كما يجاهد بنفسه وسلاحه، فقد قال فقيه كبير هو الْحسن الْبصري: إن الرَّجل ليجاهد وما ضرب بسيف يوما من الدهر.

كان هُنَاكَ اعتراض على مخاطبَة الْمسلمين وكأنهم من همل الْبشر الجهلَة الذين لا يعرفون ولا يحترِمون الْقانون الدولي الْحاكم للجماعات الإنسانية الَّتِي تعيش على هَذَا الْكوكب لأن لهم مرجعية أخرى هي الْقانون السماوي الأعلى.. يناقض ما يطنطن به فقهاء الْقانون الْغربيون تحت مسمى الْقانون الطبيعي ويعتبرونها مرجعية كثير من الْمبادئ الْقانونية الْعامَّة، لأن الْقانون الطبيعي ذاته نابع من تراث الإنسانية ومفاهيم الأخلاق وهِيَ دوائر تستمد وجودها من الأديان السماوية، ثم أننا لا نعتبر أن الاعتزاز بمرجعية الشَّريعَة الإسْلامِية تنفي فكرَة الْقَوَانِين الْوضعية الَّتِي تسير شئون النَّاس وتحقق مصالحهم. إن الْعالم الْغربي لم يعرف فكرَة الْقانون الدولي ولا الْقانون الْبحري إلا فِي الْقواعد والْمبادئ الَّتِي أرساها الْمسلمون، وقدمت قائمَة بست عشرَة رسالَة دكتوراه فِي مصر وحدها حققت هذه الْمسألَة وأصلتها بينها خمس رسائل على الأقل لمسلمين فِي فرنسا ذاتها.

"الْجزيَة" و "أهل الذمَة" استوجبا بحثا فِي أوراق خاتِمَة الْمؤتمَر. جاء فيه: الذمَّة فِي اللغَة الْعربيَّة وفي مفهوم الْفقه الإسْلامِي تعني الأمان وهِيَ لا تربط بأي معنى على الْعكس كان الْعربي يمتدح الْقوم بأنهم "لهم ذمَّة" وفي كلامنا الْمعاصر إذا استحلَفنا شخصا بأمر عزيز قلنا: بذمتك. إذن الذمَّة ليست أمرا مذموما.. فالذمَة (عقد) سنوي لم يعد يعقد مُنْذُ قرون طوال، فقد صار النَّاس يعلنون الْحرب معا ولا يدافع

بعضهم عن بعض مُقابل ضريبَة سنوية هِيَ الَّتِي كانت تُسمَّى "الْجزيَة" وبالتَّالي فلا معنى أصلا لطرح هَذَا الأمر من الأساس.

ففي الزمن الَّذِي كان فيه تقليد "الْجزيَة" معمولا به كان هُنَاكَ أيضا "الخراج" وسيلَة من وسائل تمويل الدخل الْعام الَّذِي ينفق منه على الْمنافع الْعامَّة ومتطلبات الدفاع، فالجزية والخراج هما: الضرائب الْعامَّة. الَّتِي يدفعها الْمسلم تحت اسم الخراج وغير الْمسلم تحت اسم الْجزيَة. وقد أسقط عمر بن الخطاب "الخليفَة" الْجزية عن أهل قبيلَة (تغلِب) الَّتِي كانت من كُبْريات الْقبائل الْمسيحية فِي الْعراق. كما أسقطه عن الشّعوب غير الْمسلمَة فِي آسيا وأسقطها عن بعض نواحي أنطاكيَة فِي مقابل بعض التّسيهلات (اللوجستيَة) الَّتِي تعهدوا بِهَا لأي شيخ ضعف عن الْعمل أو إصابته بآفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت عنه الْجزية وعيل (حصل على راتب) من بيت مال المسلمين. وعندما وجد الخليفَة عمر بن الخطاب يهوديا (شحات) وعرف منه أنه لا يملك شيئا ولا يستطيع دفع الْجزية أعطاه من ماله الخاص. ثم أخذه إِلَى خازن بيت الْمَال (وزير الْمَالية) وأمره أن يُسقِط عنه وعن أمثاله الْجزية، وبعده بزمان كتب الخليفة عمر بن عبد الْعزيز إِلَى نوابه فِي الأقاليم والْبلاد: إن كان عندكم من أهل الذمَة مَن كَبُر سِنّه وضعُفت قُوَّته وولّت عنه الْمكاسب فأَجْروا عليه رزقا (رواتب) من بيت مال الْمسلمين.

١٧

أتريد قهوَة؟.

"يا مين يقول لي أهوى. أسقيه بإيدي قهوَة.. أنا.. أنا.. أنا أهوى".

يأتي الصوت فيحتال عليّ.. أهو من "زبيدَة" الْغائبَة. أم هو صوت زوجتي؟ يخذلني صوتي فلا يخرج بالرد.. وتأتي الذكريات.

وضعت زوجتي الْقهوَة الْجاهزَة فِي فنجان، ووضعت جواره ملعقَة وقطعَة سكر، تركتْه أمامي.

أما "زبيدَة" الْمَغْربية فهِيَ ترفض هَذَا الإيجاز، صينية فضية عَلَيْهَا كنكَة نحاسية لقهوَة سوَّتْها النَّار فصار لها قوام "وش" وفنجانان عليهما رسم لقلب أحمر، وسحاحَة مغموسَة فِي أنبوبَة بِهَا ماء الْورد، وصحن به بلح. بل إنها غيرت قميصها- على غير مزاجي - فجاءت بقميص نوم أصفر؟! فإذا رفعت الْفنجان لأرشف الْبن..

قالت: قهوتي مُرَّة يمكن أن تتناول معها التّمر.

وإذا شربت الْماء.. رفعت السحاحَة بسرعَة لتضيف لها ماء الْورد، إنها امرأة تفرد ما عندها.. تلبس كل ما عندها.. وتقول كل ما تعرف.

زوجتي تلف وتدور بمنزلنا الصَّغِير "أستوديو" كالفراشَة حائمَة على النَّور، تراود الصَّغِير على كوب اللبن، وتغسل الأواني، وتكلمني من باب التّسليَة.

:نظرية جديدَة تتحدث عنها باريس، الْموهلة بالفراعنَة تقول: "إن رُفَات سيدنا يوسف لم تغادر مصر وإنه دفن بِهَا ولا تزال مومياه فِي

الدور الأول من المتحف المصري بميدان التحرير، وإنها لم تخرج مَعَ موسى وقومه، ولكن المومياء وضعت وحفظت تحت اسم "يويا" وهو الاسم الذي عرف به في حياته مشابه لاسم "يوسف".

اهتمت زوجتي بالأمر بحكم دراستها للآثار – ولأني لم أسمع منها شيء عن الفراعنة طول معاشرتنا فقد أرجعت ذَلِكَ للفراغ.

وتستمر وقد بدأت تقليب الطعام وتقطيع البصل.

:يويا هو يوسف وهو جد أخناتون، عالم النفس اليهودي "فرويد" اعترف في كتابه موسى والتوحيد أن الديانة اليهودية منقولة عن عبادة أخناتون، وأن اليهود حملوا معهم عندما خرجوا من مصر تعاليم ديانة أخناتون!! أتحب الكارفس في السلطة؟!.

عاد النبي يوسف ليطل بسيرته، اللّٰهُمَّ اجعله خيرا.؟! فحاولت أن أغير الموضوع.

- فقدت ٨ درجات من درجات المواظبة والحضور، وعبثا حاولت حل الأمر، فرغم حقي في غياب ٥ أيام خلال الترم الثاني إلا أنهم تمسكوا بأني لم أخطر بالانقطاع مسبقا؟!.

- ارمي وراء ظهرك.. كان احتفال جميل، قل "اللّٰهُمَّ إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم – فكيف لا نعجز عن ذَلِكَ من حيث لا نعلم بما لا نعلم".. وبعدين يعني مش حنروح البارك إلا لما تخلص اللبن.

وزادت الطينَة بلَّة. يا ست رابعَة الْعدويَّة؟! حين وزعتِ الْبحوث وأنا غائب فلم يبق إلا بحث وقع في نصيبي قصرا، وبالغصب عنوانه "النية الإجرامية في جرائم الاغتيال السياسي" لا أعرف لَه أول من آخر.

فردت علي وقد عاشت الدور الصوفي..

من ترك التّدبير فهو في راحَة، وقال سهل بن عبد الله: ذروا التّدبير والاختيار فإنهما يكدران على النَّاس عيشهم. وقيل: من لم يدبر دُبِّرَ له.

ضحكت. مالت برأسها وقلقلت الْحروف في النَّطق ونظرت لأعلى تستفتي السماء. بل استشهدت بأقوال سهل بن عبد الله – الصوفي الْورع – استمرت بين الْكلام.. وتقليب الطعام.

تعرف يا زوجي الْعزيز.. يوسف أو يويا أنجب بنتا وولدا اسمه آي، وقد تزوجت ابنَة يويا أو سيدنا يوسف، أحد فراعنَة مصر وهو "أمنحتب الثالث" وقد أنجبت له ثلاثة أبناء هم: أمنحتب الرَّابع وأخناتون، وسمنخرع، الذين تولوا حكم مصر. أما الابن فهو الْملك "آي" الذي حكم حوالي ٤ سنوات وعلى هَذَا الأساس فإن يوسف يعتبر جدا لأخناتون والجد الأكبر للملك توت عنخ آمون.

متى كان سيدنا يوسف عليه السلام في مصر؟.

بالضبط لا أحد يعرف ولكن الْعلماء لهم اجتهادات جيولوجية، فمن بين هذه الاجتهادات.

"إن الْبركان الذي انفجر فجأَة فِي جزيرَة سانتورتني اليونانية سنَة ١٦٢٨ قبل الْميلاد، أدى إِلَى انتشار سحب الْكبريت فِي السماء على ارتفاع ٢٠٠ متر فغطى ما بين تركيا ودلتا مصر، وأدى ذَلِكَ إِلَى الْجفاف وإلى الْبرودَة الشَّديدَة فماتت النَّباتات وجاع النَّاس فِي الْعصور الْقديمَة". قبل ذَلِكَ بقليل تنبأ يوسف عليه السلام لملك مصر بأن سنوات من الْجفاف والجوع سوف تسود مصر، ولذلك نصح الْملك بأن يقيم صوامع الْغلال حتى لا يجوع النَّاس فِي سنوات الْجفاف وفي هذه السنوات جاء إخوة يوسف إِلَى مصر، ومعنى ذَلِكَ أن يوسف عليه السلام ربما عاش فيما بين ١٩٠٠ قبل الْميلاد و ١٣٥٠ قبل الْميلاد، فِي عصر الْملك "خبان" أقوى ملوك الهكسوس.

- الْقول بأن ذَلِكَ نظرية يحتاج لإثبات علمي؟

- الرُّجوع لعلم الْمومياات، وأوجه الاختلاف بين "يويا" سيدنا يوسف والفراعنَة فِي "النظرية" تتركز فيما يلي: .

- لم يعرف اسم يويا بين الْمصريين فهو اسم غريب عنهم.
- أذناه لا يشبهان أذن الْفراعنَة فلم تثقبا.
- أنفه معقوف.
- شفتاه قويتان.
- فكه بارز.

- وأخيرا فإن كل ملوك الْفراعنَة عند دفنهم وضعت أيديهم فوق صدورهم أما يوسف – أو يويا - فقد وضع يديه وراحَة كفيه على عنقه.

استشعرت اهتمام حقيقي بالأمر من جانب زوجتي، حينما أوضحت أن النَّظرية تفصح بوضوح عن غايتها، فما دام فكرَة التّوحيد والإله الْواحد الَّتِي نادى بِهَا أخناتون لم تنطلق من فرعون مصري بل تجري فِي هَذَا الْفرعون أيضا دماء اليهود، ولذلك فإن فكرَة التّوحيد تشترك فيها مَعَ مصر، إسرائيل. وهِيَ فكرَة خبيثَة يمكن التّرويج لها مَعَ معاهدَة السلام بين الْبلديْن؟!.

ولكني اكتشفت نظرية أخطر: إن زوجتي زكية ويمكن أن تطيل التّركيز وتصل لنتائج؟! ولها فِي الْمداعبَة والتّهريج والتّمثيل. الأمر ليس يسير وبخَاصَّة أني فِي أهوائي لا أعرف الْحذر وأحيانا أعيش الْحب كغاية فِي ذاته. ألم تكن "زبيدَة" تقول لِي: أحيانا تحسبني امرأة أخرى.. امرأة فِي خيالك.

أنا عملت كل حاجَة.. وحأخرج مَعَ علي عشان هو ولد شاطر وشرب اللبن.. وبابا يقعد يذاكر، تعرف النَّهاردَة يا علي كام فِي الشّهر؟! أنا عارفَة وعلى الله لما نِرجع نلاقي بابي خرج؟!.

ارتشفت آخر شفطَة فِي فنجان الْقهوَة الْمُرَّة أيضا!! وقد لاحظت أني شربتُه بمرارته دون سكر على عكس مزاجي! قلبت الْفنجان ولكن من يقرأ الغيب المْحوّج؟ !.. بدأتُ أُفكِّر فِي الْبحث بضجر.

١٨

الاغتيال السياسي يظل بطلا لمعظم الأعمال الرِّوائية.. هل يوجد أدب للجريمَة السياسية؟! ويظل نداء قيصر الْقديم: (حتى أنت يا بروتس) فِي حاجَة لتفسير؟ !.. قال الْمتطرف الإِسْلامِي: نعم لم أعرف نجيب محفوظ، ولم أقرأ له، ولكنه خنجر فِي جسد نظام قبل أن يَكُون غرس خنجرا فِي جسد إنسان !! وقال قبله "مانسون" حينما سأله أتباعه ما فائدَة قتل "شاروت تيت" نجمَة الإغراء فِي هوليود وفي وقت حملها؟! قال: لقد حان يوم "هيلتر سكيلتر" وهي كلمَة رمزية تعني بدء جرائم الْقتل انتقاما من الْمجتمع بمعني لا يهم من الْمقتول وإنما الْمهم الأثر نتيجَة الْقتل؟ !.

لأن الْقتل هو الْقتل أمام الْقانون، ولأن الْعدالَة عمياء لا تعرف ألوان الْقتل ولا تهتم ببواعثه، ومن هُنَا كانت أهمية الأدب بالغوص إِلَى معاني هَذَا الْقتل الْفكري والْمعنوي عبر موت إنسان ما.. (فالاغتيال ليس قتلا فقط وإنما موقف غير عادي، أن تقتل إنسانا ربما لم تلتق به فِي حياتك، أتقتل الرَّجل أم تقتل فكرته؟ أو هو خنجر فِي جسد نظام قبل أن يَكُون غرس خنجرا فِي جسد إنسان. لا يهم مَن الْمقتول وإنما الْمهم الأثر، نتيجَة قتله) ولكن الأديب.. يجاوز هذه الاعتبارات كلها ويحدق عبرها، وينسج عَلَيْهَا ويفسر ما حدث بشكل غير مباشر فإذا الذي قاله غاية فِي الدهشَة والغرابَة، يقوله لأكثر من سبب وعلى شفاه أبطاله الْوهميين. ولهذا فقد وجد اتجاه فِي علم الاجتماع الْجنائي وعلم الاجتماع السياسي فِي اعتبار الأدب وثيقَة حياتية تحتاج إِلَى تفسير. وها أنا أحاول أن أفعل ذَلِكَ.. فهل يروق للأستاذ الْمشرف أنَ أضع الْقانون والأدب فِي زجاجَة واحدَة؟.

شكسبير في رواية (ماكبث) يجعل جنون (ليدي ماكبث) عقابا على تآمرها على اغتيال المْلك (دنكان) ويقول: (عطور بلاد الْعرب كلها "يقصد مصر والشام" لن تطهر رائحَة الدماء من يدها الصَّغِيرَة) ولدينا أمثلَة عربية كثيرَة من تاريخ الاغتيالات، كان اغتيال عثمان ومِن بعده الإمام علي إيذانا بسقوط خلافَة الرَّاشدين وبدء الاغتيالات في الْعصر الأموي ومن بعده الْعباسي إيذانا بالشر والخراب، وسقوط الإمبراطورية الإسْلامِية وهكذا فإن شكسبير قرن الْجريمَة السياسية بسقوط الْحضارَة والشر. إذا كانت وقائعها.. اغتيالات دموية وليست مجرد معارضَة سياسية بالرأي والْحجَة!!.

أتذكر زوجتي وهِيَ تقول: وبابا يقعد يذاكر.. تعرف التَّهاردَة.. يا علي كام في الشّهر؟؟ أنا عارفَة. وعلى الله لما نرجع نلاقي بابي خرج... التَّهاردَة كام في الشّهر؟ !.إنه يوم ميلادي إنها مناسبَة لا بد فيها أن أحلق ذقني!!.

أقلب صفحات جريدَة اليوم.. النَّبي يوسف يطل بسيرته؟! مكتوب: "ومع يويا أو يوسف توجد في الْمتحف الْمصري أيضا مومياء زوجته "تويا" وهي سيدَة مصرية على الأرجح أنه تجري في عروقها دماء ملكية. ووجدت بمقبرَة يويا أواني زهور، وكراسي وسريران، وعلب مجوهرات، وزينَة وأوان من الْفخار، وقلادات وصناديق، وبقايا طعام وصندلان، وأوراق بردي طولها ٢٢ ياردَة تضم أجزاء من كتاب الْموتى وعجلَة حربية كاملَة وهي الثانية من نوعها الَّتي تكتشف سليمَة تماما من عصور مصر الْفرعونية !! علماء الآثار لم يوجهوا اهتماما للبحث في أصول يويا رغم أنه من غير الْملوك "الذي دفن في وادي

المُلوك ولم يدفن فِي وادي التَّبلاء" !! كما أنه كان يحمل ٤٠ لقبا منها: حامل أختام ملك مصر السفلى، والحكيم، والأول بين رفاقه، والصديق والخازن.

يويا وتويا. إنّه تجانس الهيام.. العشق.. أكانت زلّة بشر.. أم زلّة قدر؟ "مومياء زوجته تويا" وهي سيدَة مصرية من الأرجح أنه تجري فِي عروقها دماء ملكية.. فهل هِيَ زليخَة امرأة الْعزيز.؟ أقوال يهودية بأن يوسف تزوج زليخَة "امرأة الْعزيز" ردها إليه الرَّب. شابّة - بعد موت زوجها- تلاقيا بعد ٣٠ سنَة من توليه الأمر بمصر؟ !.. كانت عجوزا عمياء ضاع منها الْجمال والْمال والجاه ولم يضع حب يوسف !؟ اعترفت بفعلها علنا " أنا راودته عن نفسه فاستعصم" وتحملت اللوم، وآمنت برب يوسف. ليأتي الْوحي ليوسف بالْبحث عنها والزَّوَاج بها! ويقول الْوحي: "لا تنس أنها ربتك واعتنت بك وأحبتك، كنت لها ابنا فلما كبرت رأتك حبيبا؟! قس ما فعله إخوتك بما فعلته زليخَة !!".

أيمكن أن يتطابق الدين مَعَ التّاريخ؟! *.

أكمل التّحقيق الْموسع بالجريدَة أجد بدون مبرر هذا التّخريج مقحما على الْموضوع: "اليهود الذين جاءوا إِلَى مصر مَعَ سيدنا يوسف خرجوا من مصر مَعَ النَّبي موسى عليه السلام بعد ٤٣٠ سنَة فِي أوائل عصر الأسرَة الثامنَة عشرَة. وبدأ اضطهاد اليهود فِي عصر الْملك

الغريب أنّة أنتجت تمثيلية " بإيران" فيما بعد - ظهر فيها النّبي يوسف وإخوته وأبيه النّبي يعقوب "إسرائيل"؟! جهارا نهارا ممثّلين من لحم ودم. لقد تبنت الْمعنى اليهودي أيكون هو نفس الْمعنى في الإسلام؟ !

"حورمحب" الذي دام عهده حوالي ٢٨ سنَة وهو آخر ملوك الأسرَة الثامنة عشرَة، ويؤيد هَذَا الرَّأي كل من الأثري "آرثر ويجال" وعالم النَّفس اليهودي "سيجموند فرويد" وينتهي بأن اليهود خرجوا من مصر فِي عصر "رمسيس الثاني" وهو ثالث ملوك الأسرَة التَّاسعَة عشرَة أي حوالي عام ١٤٠٠ قبل الْميلاد أو في عهده، أو أنهم خرجوا من مصر فِي عصر "منفتاح أو ميرنبتاح" رابع ملوك الأسرَة التَّاسعَة عشر وهو ابن رمسيس الثاني، مِمَّا يؤكد أن اليهود لم يغادروا مصر دفعَة واحدَة بل غادروها خلال فترَة ربما امتدت مائتي عام. وهو وضع يتماشى مَعَ حركات الشّعوب وهجرتها".

يحضرني سؤال: هل أخرجوا اليهود، أم هم الذين خرجوا مُخْتَارِين وسعوْا لذلك، إن الْفرعون ذهب ورائهم ليعيدهم، دخلوا مصر مختارين فِي عصر النَّبي يوسف.. وخرجوا مَعَ موسى؟[1] الَّذِي طرد اليهودَ من الْغربُ، الألْمَان أعلنوا الْحرب على اليهود، لقد أجبروا اليهود على ارتداء

---

(١) الإحصاءات الْموثقَة تشير إِلَى عمليات سرية لجأت لها إسرائيل لنقل اليهود إليها من الْبلاد العربية، ففي ١٩٥٠ وعبر جسر جوي بين عدن وتل أبيب نقل ٨٦٥٠ من يهود اليمن - وفي ١٩٥١ أقيم جسر جوي عرف بالْبساط الطائر نقل حوالى ٨٩٠٨٨ من يهود الْعراق إِلَى إسرائيل من طريق قبرص ومن ١٩٤٨ وحَتَّى ١٩٥١: تم هجره٣٠٩٤٢ من يهود ليبيا، ٢٥٠٠١ من يهود الجزائر، ٢٣٢٦٥ من يهود اليمن، ١١٨٤٤ من يهود الْمغرب، ٨٢٦١ من يهود تونس، وكلهم خرجوا مختارين لإسرائيل؟!
وفي ١٩٦٠ تم نقل ٤٠٠٠ من يهود الْمغرب دون إعلان بمساعدَة الْمخابرات الْفرَنسيّة!! ثم كانت فِي الثمانينات " ١٩٨٢ – ١٩٨٥ " عملية (موسى الْكبرى) وفيها تم نقل يهود إثيوبيا "الفلاشا" عن طريق السودان لإسرائيل بمعرفَة الْموساد وعلى طائرات الْمليونير اليهودي "جورج ميتلمان": وتم فيها نقل ١٠٠٠٠ من يهود إثيوبيا؟.

شيء أصفر كلما أرادوا الخروج ليتمكنوا من التعرف عليهم! ما لم أستطع فهمه هو ما كان يصنعه اليهود في ألمانيا كيف وصلوا إلى هُنَاكَ إلى بلد الثلج؟ كنت أظن أن اليهود كالعرب يفضلون المناخات الدافئة، أفلم يكونوا يسكنون المدينَة المنوّرَة وسط الصحراء العربية، في عصر النَّبي؟! وقبل ذَلِكَ عاشوا في مصر غير بعيد عن مكّة، وفي سورية وفي كل الشمال الإفريقي بل ليبيا أيضا. هُنَاكَ شيء مؤكد لقد عاش اليهود مَعَ العرب مُنْذُ أقدم الأزمنَة. وقد عاملهم بالحسنى النَّبي محمد عندما بدأ الدعوة إلى الإسلام. لكنهم ارتكبوا شرا، فقرر أنه إذا كان للديانتين أن يتعايشا في مدينَة واحدَة فيكون ذَلِكَ في حيين منفصلين.

اشتاقت "زبيدَة" لأحاورها.. هذه المرأَة المنفلتَة من النَّص، أتشوق لصدفَة تجمعنا. من المؤكد سيكون لها مدخل مختلف في الأمر؟! .

منذ حضوري لجامعَة ليون احتوتني وكأَنَّهَا في الانتظار، كانت وحيدَة "مقاطعة" من الدارسين العرب، لأنها لا تضع حاجزا بينها وبين الدارسين اليهود، دخلت إليها، حنينها كساني جنونا.. فسرت لي موقفها المختلف؟ !.

بعبارَة: "كلنا دارسين لا فرق بين جنس أو عقيدَة أو جِنْسِيَّة - لسنا محاربين؟ !".

ثم أوضحت التفسير المغربي:

(لليهود في فاس حيهم الخاص وللوصول من بيتنا إليهم لا بد من نصف ساعَة بالتمام واليهود يشبهون سائر النَّاس في ثيابهم الطويلَة الشَبيهَة بجلابياتنا وهم يضعون قبعات بدلا من العمائم وهذا كل شيء

وهم منصرفون إلَى أعمالهم ويلزمون حيهم ومنظمون جدا وإحساسهم بالطائفَة أكثر نموا من إحساسنا، يصنعون حليا بديعَة!!.

وتصنع النِّساء محفوظات من الخضار بالخل وقد حاولت أمي أن تفعل مثل ذَلِكَ بالْكوسا والخيار والْباذنجان الصَّغِير لكنها لم تنجح قط !! أتعرف كيف وصلوا إلينا فِي مراكش.. ومتى؟ كان ذَلِكَ أثناء احتلال أسبانيا، حول الأمويون الأندلس إلى جنَة وارفَة الظلال وبنوا قرطبَة وأشبيلية.. ولحق اليهود بهم. لماذا وكيف؟! قد يَكُون السبب الرَّئيسي أن الأمويين الْمسلمين عصبَة من محبي الْفرح، الخلي الْبال، والذين تلهوا ببناء قصر خرافي "الْحمراء".. قضى الْعرب فِي الأندلس سبعمائَة علم وهم يلهون بتلاوَة الشّعر وملاحظَة النَّجوم فِي حدائقهم وكانوا متسامحين إلى حد أنّه لم يكن يعرف ما ديانَة الْجار وكان النَّاس يُغَيِّرون عقائدهم كما يغيِّرون قُفْطَاناتهم. ويوما استفاق الأطلس الْعربي لنراهم يغدون علينا بالْمئات الْعرب واليهود وهم يصرخون من الخوف ومفتاح بيتهم الأندلسي بيدهم؟ !.

كانت تطاردهم ملكَة مسيحية متوحشَة خارجَة رأسا من الثلج اسمها "إيزابيل" لقد ركلتهم ركلَة حقيقية وقالت لهم: إما أن تصلوا مثلنا وإما أن نرميكم فِي الْبحر.؟! لكنها فِي الْواقع لم تترك لهم وقتا ليجيبوا! وألقى جنودها جميع النَّاس فِي الْبحر الْمتوسط وسبح الْعرب واليهود حتَّى طنجَة (إلا الذين أتاح لهم الْحظ أن يعثروا على سفينَة) وأسرعوا إلَى فاس ليختفوا فيها... (كل ذَلِكَ قبل أكثر من خمس مائَة عام) إيزابيل الْكاثوليكية طردت الْمسلمين مَعَ اليهود لأنهم لا يصلون بالطريقَة الَّتِي تصلي بها.؟ !).

أتريدني أن أفعل ما فعلتْه "إيزابيل" ؟.

أكان ما بيننا زلّة قدم.. أم زلّة قدر؟ ما أوجع الشّهوَة الّتي يواجهها أكثر من مستحيل، وأكثر من مبدأ، وأكثر من خلاف فلا يزيدها ذَلِكَ فِي النّهاية، إلا.. الاشتهاء! فكيف احترمت خلافنا؟ عقلين متوازيين فكيف حدث التّماس بين الْقلوب؟ أكان ما بيننا زلّة قدم.. أم زلّة قدر؟.

كان الْوقت آنذاك ١٦/ ٤/ ٩٣ فِي يوم مطير، كان يومي الْعاشر فِي الْغربَة، ووجدت لديها الشّمْس الدافئَة، فِي هَذَا اليوم قال الْفرنسيون فِي الْميديا والصحافة وبانزعاج فِي إعلامهم بأن الشّهيد الفلسطيني/ ساهر حمد الله التّمام. قاد سيارَة مفخخَة اتجهت صوب مستوطنَة "ميحولا" على بعد ١٥ كم من نهر الأردن فانفجرت بين حافلتين عسكريتين إسرائيليتين، وأصابت عدد من الْعسكريين[1].

---

(١) من النّاحية التّاريخية ينسى كثيرون أن النّضال الْفلسطيني مُنْذُ الثلاثينيات جرب كل صور الْمقاومَة وأن الْعمليات الاستشهادية تمثل حلقَة متأخرَة فِي مسيرَة النّضال وقد لجأوا إليها باعتبارها ضرورَة فرضتها ظروف مواجهَة الاحتلال، أذكر فِي هَذَا الصدد بأن انتفاضَة عام ٨٧ لم تطلق فيها رصاصَة من الْجانب الْفلسطيني، وإنما عرفت بانتفاضَة الْحجارَة، الّتي رد عليها..
"إسحاق رابين" بتكسير عظام الشّباب الْفلسطينيين غير أن الْمقاومَة الْفلسطينية لجأت إِلَى استخدام السلاح فِي غزَة عام ٩١ بعد أن نجحت الأجهزَة الصهيونية فِي احتواء، واستيعاب آثار تلك الانتفاضَة واستهدفت عمليات إطلاق الرّصاص آنذاك الْجنود والْمستوطنين فِي الْقطاع، فِي الشّهر الأخير من عام ٩٢ أبعدت قوات الاحتلال ٤١٥ من قيادات الْحركَة الإسْلامية فِي فلسطين إِلَى " مرج الزهور " وإزاء ذَلِكَ قررت (كتائب الْقسام) أن تلجأ إِلَى أسلوب الْعمليات

أذهب للحمام لأحلق ذقني، صورتي في المْرآة تؤكد أنّ الْعمر مر. تجاعيد تحت جفون الْعين، اللون الأبيض يزرع جذوره في الشّعر، ما في الْقلب يصغر عن ما بدا في الْوجه بعشر سنين!! أحان الْوقت لطفل آخر حتّى لا أترك ولدي وحيدا؟! هل يترك الْقدر لي الْقدرَة على اختيار متى يأتي الأولاد؟. أئذا تركت زوجتي الْحبوب إياها، أو مجرد وجودي الذُّكوري معها.. يأتي بالْحمل؟ أم أنّ هُنَاكَ أشياء حدثتْ لدينا.. وبنا أعجبها الْوضع الْحالي !!.

إن علي جاء واللولب موضوع !! ولذا تعاملنا مَعَ الْحبوب أكانت هِيَ الْحقيقَة؟ أم ضجر أنثوي من رجل تخاف هروبَه فكذبت الْعلم بالْكيد؟! أكان في عيني بيان الْفرار.. فخلعت اللولب باردَة منفردَة لها ما يبررها من خوف و ضجر أنثوي. أم هو استثناء الْعلم؟!.

يا للنساء.! على كل حال بقي للحكاية نكهَة الْفحولَة.. حين أحكي بأن الْعلم لا يقف في وجه قوَة الرَّجل، الْجامح، الطامح في الْعشق، وأضرب بنفسي كمثال، فتطمع بعض النِّساء في هذه الأُعْجوبَة!! وتعتقد أن مجرد روايتها غزل أو عرض ينتظر الطلب! ولكن تبقى الْحقيقَة عند زوجتي، والطبيب الْمعالج!.

الاستشهادية ونظمت ما سمي بمسيرَة " الأكفان " الّتي اتجهت صوب الْحدود فكانت سيارَة الشّهيد ساهر حمد الله التّمام الْمفخخَة.. وحَتّى ذَلِكَ الْحين لم تكن هُنَاكَ عمليات ضد مدنيين يهود من جانب الْمقاومَة.

١٩

أعاود التفكير في البحث.

يُلقي كامو بقية ضوء ويركز عدسته المكبرَة.. في مسرحيته "العادلون" تروي حكاية فئةٍ من المثقفين المخلصين الذين يقررون اغتيال الدوق الكبير لأنه يسيء إلَى البلاد، يجدون في موته واجبا إنسانيا.. هم يمقتون القتل، ولكنهم في محاكمتهم له في تنظيمهم السري، حكموا عليه بالإعدام.

دورا: إننا مجبرون على أن نقتل أليس كذلك؟ وكاليليف هو الذي سينفذ الاغتيال. طيلَة عام عشنا من أجل تلك اللحظَة.. دقيقَة بدقيقَة، ساعَة بساعَة. أعطينا للدوق فرصه.. وحاولنا فرملَة طغيانه.. ولكن دون جدوى لسنا وحدنا الخانقون وإنما كل الوطن كاليليف سيعمل إرادَة الوطن؟.

فهل يمكن للقانون أن يقف بجوار كاليليف الَّذِي سيعمل إرادَة الوطن. إذا ما أطلق رصاصَة على الدوق؟.

ما يسمى "الجريمَة السياسية" أي ما يرتكبه صاحب الرَّأي أو المذهب السياسي مخالفا به الأوضاع السياسية القائمَة والَّتِي يحميها القانون ليست في الواقع من قبيل "الإجرام" الَّذِي تصدق في شأنه وظائف العقاب الأخلاقية منها أو النَّفعية فمن النَّاحية الأخلاقية أي "العدالَة" لا يمكن الزعم بأن عقاب المجرم السياسي فيه تحقيق العدالَة عن ذنب ارتكبه وتهدئَة بالتالي لشعور السخط العام، لأن هَذَا الشعور إن وجد فإنما يوجد عند فريق فقط من المجتمع لا يوافق

المْجرم على معتقده السياسي بينما شعور الإعجاب هو القائم لدى فريق آخر مؤيدا له، وقد يشكل الْغالبية فِي بعض الظروف. ومن ناحية المْصلحَة الاجتماعية فإن مجرد تقرير عقوبَة للجريمَة السياسية قلما يصد صاحب الرَّأي السياسي عن مواصلَة نشاطه فِي سبيل تحقيق أهدافه كما أنّ عقاب المْجرم السياسي بالفعل لن يثنيه عن رأيه أو رسالته الَّتِي يؤمن بِهَا، ولن يمنعه بالتّالي من الْعودَة إِلَى تكرار محاولته متى سمحت له الْفرصَة.

انقسم الْفقه النَّيوكلاسي إِلَى مذهبين تبعا للرغبَة فِي توسيع أو فِي تضييق دائرَة الْجرائم السياسية:

الأول: المْذهب الشّخصي: ويكتفي بلون الْباعث الَّذِي دفع المْجرم إِلَى ارتكاب جريمته، فكلما كان الْباعث سياسيا اعتبر الْجريمَة سياسية وذلك بغض النَّظر عن موضوعها.

الثاني: المْذهب المْوضوعي وهو على الْعكس من المْذهب الأول لا يكتفي لاعتبار الْجريمَة سياسية بأن يَكُون الْباعث على ارتكابها سياسيا وإنما يعتد بطبيعَة موضوعها أي الْحق المْعتدى عليه فيها فتكون الْجريمَة سياسية إن كان موضوع الاعتداء أحد حقوق الأفراد السياسية.

تطبيقا للمذهبين المْتقدمين يمكن الْقول بأن هُنَاكَ من الْجرائم ما يعتبر سياسيا "بحتا" وذلك لأنها تعتبر سياسية سواء بالنظر إِلَى صفَة الْباعث الَّذِي أوحى إِلَى المْجرم بارتكابها أو إِلَى طبيعَة الْحق المْعتدى عليه.. على ذَلِكَ يدخل فِي هذه الْجرائم: الخيانَة العظمى، والتّجسس الَّتِي تقع بدافع سياسي، والاغتيالات السياسية بالطبع.

ويذهب كاليالِيف بالقنبلَة، مترصدا مرور عربَة "الدوق الْكبير" لكنه لا يرمي بالقنبلَة.. لماذا؟ لأن أطفالا كانوا يرافقون الدوق فِي عربته، ولأنه ليس من حقه أن يقتل الأطفال...

كاليالِيف: لم أحلم قط بشيء كهذا.. أطفال، أطفال بالذات.. هل راقبت قط عيون الأطفال؟ تلك النَّظرَة الْحزينَة الْمباشرَة.

إذن اصطدم كاليالِيف لحظَة الْقتل بـ "هول" الإنسان الْعادي داخل نفسه وسقط عنه فكرَة الْقتل للأبرياء، سقط سحر التّـنويم السياسي الذي يبرر أحيانا لأصحاب الْعقائد إباحَة الأمر! أهذا نهض الاتجاه الليبرالي فقال السياسي الْفَرَنْسِي "فرانسوا جيزو" بضرورَة استبعاد "الإعدام" الْعقوبَة الْعظمى من هَذَا الْمجال والتّرفق بالْمجرم السياسي بوجه عام بحيث لا يخضع فِي الْعقاب لما يخضع له الْقتلَة السَّفاحون، واللصوص، وقطاع الطرق، وأسس هَذَا على أن الْجريمَة السياسية لا تشكل ذنبا أخلاقيا. إذن فلا محل لفكرَة الْعقاب الَّذِي يعني التّـكفير عن الذنب إرضاء لشعور الْعدالَة.

ثم جاء "جاروفالو" قُطب الْمدرسَة الْوضعية بعد ذَلِكَ وأدلى برأيه فِي الْجريمَة السياسية من وِجهَة نظر "علم الإجرام" فجعلها نموذج "الجرائم الْمُصطنعَة" بمعنى أنه أخرجها من نطاق الْجرائم الَّتِي انشغل بِهَا "علم الإجرام" والَّتِي يُوصِي فيها هَذَا الْعلم بفحص الْمجرم من النَّاحيتين الأنثروبولوجية والْبيئية لتُبين الْعوامل الَّتِي أثَّرت فِي سُلوكه الإجرامي وتقدير نصيبه من الخُطورَة الإجرامية، كل ذَلِكَ تمهيدًا لاختيار ما يُلائمه من تدابير أمن الْمجتمع وحمايته من هذه الخُطورَة

ولا ريب في أن هَذَا المنطق العلمي يلتقي مَعَ المنطق العقلاني الَّذِي ساقه جيزو من حيث ضرورَة استبعاد الإعدام وكل عقاب أو تدبير انتقامي من نطاق الإجرام السياسي؛ لأن الاستئصال أي الإعدام عند بعض أقطاب المدرسَة الوضعيَّة إنما هو تدبير لحماية المُجتمع من الخطورَة الإجرامية وهو معنى لا وجود له في حالَة المُجرم السياسي؟.

عند شكسبير مثلا القتل أو الاغتيال السياسي شر، حُجَّة يُغطِّي بِهَا الإنسان أحيانا حُبَّه للسُّلطَة أو للظهور وفي مسرحيته الرَّائعَة "يوليوس قيصر" لحظَة يقتل القيصر بين أصدقائه، ويرى بينهم "بروتس" الذي ربَّاه وجعله ينشأ في بيته! فلا يهوي إلَى الأرْض ولا يلفظ أنفاسه إلا حينما يرى بروتس الذي يؤمن به والذي يحفظ تعليماته عن ظهر قلب وقد سدَّد طعنته إليه إذ يقول: وأنت أيضا بروتس؟! فلْتَمُتْ قيصر إذن.

إنَّه لا يُعاتب أو يطلب عقاب بروتس وإنما يعني.. إذا كان هَذَا رأي بروتس معكم، هَذَا الرَّجل الذي أؤمن به، ويؤمن بي، هَذَا الرَّجل الذي أكل عيشي، وشرب نبيذي، إذن لا بُدَّ أن هُنَاكَ سببا مُقنعا لموتي فَلأَمُتْ إذن. !!

لكن شكسبير يجعل قتل قيصر نذيرا للخراب، فالقتل عنده مَقرُون بالطبعية الْغاضبَة والمُذهلَة، وبظهور شرورها كَرَدٍّ فعل ضد شر الإنسان ويعبر عن ذَلِكَ بالسحرَة والنُّبوءات وانتشار البُوم، لكن قيصر نفسَه يتجرَّد في لحظَة موته ويرى أن المْوت جزاءً عادلا!.

فهل الْقانون الْفَرَنْسِي لَه شفافية قيصر؟.

لقد سحبت من الْوجدان الْقانُوني كلمات "ثورَة وكفاح وتمرد ومقاومَة" لصالِح مصطلح وحيد "إرهاب" ؟! إن بروتس وأنطونيو وكل الثوار ضد قيصر – ليس لهم من نصير فِي الْقانون الْحديث إلا الْجَبل.. ليصيروا من الْمطاريد. عُظماء التّاريخ هم مطاريد الْقانون؟! الْمقاومَة الفلسطينية من مطاريد الْقانون! الأكراد من مطاريد الْقانون! الْغَجَر من مطاريد الْقانون! الأرمن من مطاريد الْقانون! ال...

سمعت صَرِير الْباب وهو يُفتح.. انطلق عَلي إلى أحْضاني وهو يَصِيح – "بابي.. بابي رحنا الْبارك" .

احتضنتُه.. وقبَّلته، كان فِي عينيه حنان يكفي فرنسا. قبضت على لحظَة الْعذوبَة هذه. شعرت بأنَّه قطعَة مني.. كان ما وراء هذه اللحظَة قبض الرِّيح! لم ألْحظ أن زوجتي أتت بتورتَة وشموع وقداحَة جديدَة.. لزوم عيد ميلادي. ولكني تَنبَّهت.

"لنيتها الإنسانيَّة" حينما ارتدت قميص نوم قصير بلون أصفر كناري وهَمستْ "سنَة حِلوَة يا حبيبي ".. كانت تُرَاوِد عليًّا بجَسارَة على أهمِّية النَّوم.. وتحثُّه عليه بفسحَة جديدَة. والصغير مُستكين فِي أحضاني مُستمتع بلحظَة أبوَّة.. استوحشتني، فاستملح التّمتع بِهَا، ولكن لم يقاوم كثيرا عند الْوعد بلُعبَة جديدَة كانت أعجبته؟!.

"أتذكر.. صينية فضية عَلَيْهَا كنكَة نحاسية لقهوَة سوَّتْها النَّار فصار لها قوام "وش"، وفنجالين عليهما رسم لقلب أحمر، وسحاحة مغموسَة فِي أنبوبَة بِهَا ماء الْورد. وصحن بِهِ بلح. بل إنها غيرت قميصها- عَلَّى أُغيِّر مِزاجي- فجاءت بقميص نوم أصفر؟! فإذا رفعت

الْفنجان لأرشف البُن.. قالت: قهوتي مُرَّة يُمكن أن تتناول معها التَّمر. وإذا شربت المْاء.. رفعت السحاحَة بسرعَة لتضيف لها ماء الْورد؟!".

حَتَّى أنت يا بروتس... تأتيني باللون الأصفر؟!

"هذه.. الذي أؤمن بها، وتؤمن بي، هذه.. الَّتِي أكلت عيشي، وشربت نبيذي، إذن لا بد أن هُنَاكَ سببا مُقنِعًا ل.... فَلأَمُتْ إذن".

لِيُساعد الله إذن الْقيصر. فالسيوف كلها تأتيه صفراء لامعَة !! أمنياتي للأصفر الْكناري.. أتمنى أن تُفرد ما عندها.. تلبس كل ما عندها.. وتقول كل ما تعرف. وتلقي بعلبَة الْحبوب!!.

٢٠

عاودت الانتظام اليومي بالمحاضرات فالترم الثاني من المنحة الدراسية كان مكثف المنهج كما أني كنت أتردد على مكتبة الجامعَة كطريقَة للمذاكرَة، وأيضا لحل لوغاريتم الآثار الفرعونية الَّذِي وقع فِي حِجر زوجته فجأة !! غير أنّ حقيقَة الأمر وبواطنه، فِي هَذَا الالتزام الَّذِي وصل إلى حد التزام تلاميذ الدِّراسَة الابتدائية عندنا فِي مصر بالذهاب كل يوم للمدرسَة، أمر آخر؟.

كنت أبحث عنها، ولكنها لا تأتى المحاضرات المشتركَة بين ما أدرس وما تدرس انتهت، وهِيَ بطبيعتها مُنْذُ البدء ليست من هواة المكتبَة! حتَّى الأماكن العامَّة بداخل الجامعَة حيث كنا نتردد عَلَيْهَا بحثا عن صدفة عمدًا، كانت تجمع الكثيرين والكثيرات، ولكن ليس من بين الجميع (زبيدَة)! .

لم تأت الصُدف الَّتِي أريدها، ولكن القدر ساق صدفًا أخرى. تأتي حتَّى الصُدف بما لا يشتهي العناق! إنها الفَرَنْسِية سريعَة الحركَة، كنت أعتقد أن الجزائري ذبحها إذ عرف أنها تبحث فِي الحجاب عن جذور الدافع الجِنْسِي؟! ولكن يبدو أن الجزائريين يملكون من السماحَة وسعَة الأفق أكثر مِمَّا قدرت مَعَ فرنسا؟ !.

كنا نلتقي فِي نظرات طويلَة تنتهي بأن يَغُضَّ أحدنا النَّظر.. وينصرف، كان من الواضح أننا مدركين لمعرفتنا السَّابقَة، ولكن مُصرِّين على نفيها! ولكن مَعَ كرم القَدَر، واعتياد الصُدَف تبيَّن لِي

أنها أطول مِمَّا قدرت، وأنها دخلت إلى موضة التّنانير ولم تخرج منه، تايرات أنيقَة بألوان مختلفَة، ودوما جيب قصير!.

أثناء وجودي بالمكتبَة وجدت كتابًا بعنوان إنجليزي the dramedary وعليه رسم الجَمَل، وكان معنى الْكلمَة (الجَمَل الْعربي) اختطفته من الْحامل، فيبدو أنه جاء موعد معرفة معنى "أيُّها الجمل الصحراوي" من شفتي حبيبتي ابنَة "ميراكو " كما تحب أن تنطق المْغرب".

أيكون ذَلِكَ سبب الْغياب؟!

ألا تعرف أن الله يقول: (أفلا ينظرون إلَى الإبل كيف خلقت) الْكتاب يقرر أن الجِمَال تُسَمَّى الإبل عند الْعرب، وأن الذَّكر الْقوي يُسَمَّى هجين والأنثى تُسمَّى ناقَة، وأن الْعرب قبل الإسْلام كان لديهم عادات مَعَ الإبل؛ فالنَّاقَة الَّتِي تلد خمسَة بُطون تُشَقُّ أذنها تعفى من الْحمل والذبح، وأما الْجمل الَّذِي يُعَشِّر عشرَة ناقات فيسمونه (الْحام) الَّذِي حمى ظهره فيُترك لا يُركب، ولا يُنتفع به ولا يَمنع عن المْاء أو المْرعى !!.

وللعشق حكايته فِي دنيا الإبل، فالجمل لا يصبر على المْاء والطعام فقط، ولكنه يصبر على رغبته أيضا! .

وبالتّالي فالنوق "جمع ناقة" هِيَ الَّتِي تبدأ الغَزَل؟! تبحث عن الذَّكر ويُصاحب ذَلِكَ حركَة جسمية كتلاعب ذيلها، أو فتح الأرجل الخلفيَّة.. أما الذكر فهو شاعر فِي عشقه؛ فهو لا يُحاول التّقرب بفمه من فتحَة الْمِهبل كمعظم الْحيوانات!! ولكنه يلمس رقبَة النَّاقَة

ويُدَغْدِغها، ويُصدر صوت الْقبول للجِماع وهو المعروف ب (الْقرقار) فإذا سمعت النَّاقَة (الْقرقار) بركت، ونخَّت وركعت فيركبها الْجمل ويحتضنها برجليه الأماميتين. أمَّا إذا لم تكن مستعدَّة تخفض جسمها بهدوء وعاندت الْجمل، فإن الْجمل يعضها فِي رقبتها ويرغمها بالقوَّة على الرُّكوع على الأرْض، وهنا يصدر صوت يعرف بـ (الْقصف).

يذكر الْكتاب أن هُنَاكَ روايات كثيرَة عن جماع الإبل تختلف هذه الرِّوايات حيث إنها نادرا ما تشاهد وهِيَ تقوم بهذه الْعَمَلِية كما أن أفراد الْقطيع الآخرين يحجبون الرُّؤية عن الإنسان أثناء الأمر! ومن هذه الرِّوايات ما يُحكى عن "النُّوق الْحمر" وهِيَ الَّتِي تدرك من صوت الذَّكر، ولمسه لرقبتها، ما إذا كان "هجين" أم ضعيف، فلا تترك نفسها إلا للذكر الْقوي (الهجين) فتبرك! وتكون قادرَة على مقاومته ورفضه حتَّى إذا عضها ليرغمها على الرُّكوع، لأنها تدرك ضعفَه فينصرف عنها.

أتذكر البحث فألملم الكتب الَّتِي أعتقد أنها مُفيدَة.. وأكتب:

(أندريه مالروا) يصف أجمل وأصدق وصف للجريمَة السياسية فِي رائعته "الوضع البشري" (تشن) يقتل إنسانا لا يعرفه، ولا يرى جسده أيضا، لأنه نائم تحت ستارَة السرير (ناموسيَّة) تلفه تلك الكدسَة من القماش الأبيض الَّتِي كانت تتدلى من السقف على الجسد. إذن (تشن) لا يقتل رجلا وإنما فكرَة مكفنَة بالبياض؟! هو يعتقد أنه بالتخلص منها تنتهي معاناته، وشرور الأرض !).

مالروا ببراعَة مُذهلَة استطاع أن يُلخص رؤاه للموقف خلال اللحظات الَّتِي تسبق القتل كلها: تشن لا يعرف الرَّجل الذي سيقتل ولا يَعيَه، وكل ما يعرفه هو أن من واجبه أن يقتله! وهو مطمئن إلى هَذَا. ولا يراه كإنسان ذي جسد إلا لحظَة القتل بالذات فقط لحظَة "يشعر بالجسم عبر نصل الخنجر ينتفض".. يشعر "بهول" القتل الإنساني، لكن بهول وقلق مجيد، مجيد؟! لأنه فِي اللحظَة نفسها لا يعتبر نفسه قاتلا فهو "قربان يقدمه للثورَة" لا يهم من المقتول؟! وإنما المهم الأثر نتيجَة قتله !! ولكنه.. ونقمَة الدراما، بعد أن يذهب متوهما الخلاص. إذا بالمقتول رجل آخر؟ موته لا يُنهي معاناته وتبقى شرور الأرض، ويضاف لوجدانه خزي أنه قاتل غبي بلا ثمن ولا معنى؟!

يحدث هَذَا مَعَ المجرم السياسي حين تهرب منه طلقته عن الهدف الأساسي فتصيب بريئا! كانت السياسَة تُضايقه والنظام الاجتماعي يضيق عليه، فأنهى هَذَا الغضب بالتَّنفيس بقتل أحد

الْوزراء أو الْمشاهير أو.. فإذا به قتل بريئا ولم يجد هربا من إثم الْقتل، إلا نفس الْعبارَة السَّابقَة "قربان الثورَة". صحيح إن قتل "الطاغيَة" هو قتل فكرَة بقدر ما هو قتل إنسان. ولكن لا عبرَة فِي النِّية الإجرامية بتحديد محل الْجريمَة أهي الطاغية أم الْبريء؟!.

يا أيُّها الْقانون أتتصور أنك تأتي لنا بالعدل؟! كم كنْتِ عبقرية يا زبيدَة.. حين قررتي أن تُعرِّي الْقانون وتُفقديه وقارَه، كنت تُظهرين توحشَه وتطالبيه بالرأفَة، أأنت أديبَة أم علَّمك الأدب أن تكوني محامية شاطرة؟!.

القانون يرى توفر "النِّية الإجرامية" أي الْعمد لدى الْجاني بغير أن يَكُون الْجاني محيطًا بالصفات الْمميزَة لمحل الْجريمَة "الْمجني عليه" ويفترض أنه لم يكن يعنيه تحديد هذه الصفَة وإدخالها فِي حسابه الإجرامي. فهو قد قبل الْجريمَة مقدمًا بالصفات الَّتِي يستقر عَلَيْهَا محلها أيًّا كانت عندئذ؟! ويعرف الْعمد هُنَا بحسب ما درج عليه الْفقهاء فِي كتاباتهم – بالعمد غير الْمحدود -! مالروا فِي رائعته "الوضع الْبشري" يُعرِّي الْقانون من أهم صفاته الْمنطق!.

ولكن يبقى للقانون عذره "للعمد غير الْمحدود" حالَة الذي يُلقِي بقنبلَة فِي مكان عام اكتظَّ به الْجمهور قاصدًا من ذَلِكَ الإرهاب وإشاعَة الذعر والفوضى عن طريق قتل الْبعض، وإصابَة الْبعض الآخر بغير تعيين، أو قاصدًا قتل شخص بعينه يعلم بوجوده وسط الْمجتمعين لا يعنيه بعد ذَلِكَ من يقتل أو يصاب من الأشخاص الآخرين أيًّا كانوا أو كان عددهم؟.

الْحيدَة أو الانحراف عن الهدف يعالجها الْقانون بمنطق عقابي لا بالعدل؟! وتتحقق فِي حالَة ما إذا أراد الْجاني مثلا أن يصيب "زيدا" بمقذوف ناري فيخطئه ويصيب شخصًا آخر يتصادف وجوده أو مروره بمكان الْحادث. أو ما يُشبه حالَة ما إذا تعمد الْجاني قتل شقيقته بالسم بسبب سوء سلوكها، فلما أعطاها فطيرَة محشُوَّة بالزرنيخ لهذا الْغرض أرجأت أكلها ثم نسيتها فِي مكان بدارها فعثرت عَلَيْهَا شقيقتها الصغرى فأكلتها وماتت؟ !.

أراد الْجاني "زيد" أو الْملك، أو الطاغيَة.. وأراد الْقدَر "عمرا".. فكان للقدر ما أراد، ولأن الْقانون لا يعرف ذلَّة الْقدر يعاقب الْفرد صاحب ذلَّة الْقدم! الْقانون لا يرى أي غلط "يشوب الْجاني بالجريمَة الَّتِي تعمدها أو بشخصية الْمجني عليه فيها، لأنه يعلم تمامًا شخص من يصوب إليه سلاحه أو الْمقصود بالتَّسمم وكل ما هنالِك أنه أخطأه وأصاب سواه، ولكنه كان يريد النَّتيجَة الإجرامية "القتل"؟!.

فالرأي السَّائد فِي الْفقه والقضاء هو أن الْحيدَة عن الهدف أو الغلط فِي الشَّخص لا أثر لها فِي تحقق الْعمد لدى الْجاني بالنِّسْبَة للواقعَة الَّتِي انتهى إليها نشاطه، بمعنى أن الْجاني يُسأل عن هذه الْواقعَة كما لو كان قد تعمَّدها بالذات؟! فاعتبر الْغلط فِي الشَّخص والْحيدَة عن الهدف صورتين من صور هَذَا النَّوع من الْعمد الخاص الْمعروف بالعمد غير الْمحدود.

معنى ذَلِكَ أن "الْباعث" قانونا شيئًا مختلفًا عن "العمد" فهل ينبغي أن أمنحه أهمية عند الْبحث؟ !.

الأديبَة (غادَة السمان) ترى بأن الاغتيال السياسي يختلف عن الْقتل - لأنه شيءُ حضاري؟! الْحيوانات تقتل باستمرار لكنها عاجزَة عن ارتكاب الاغتيال السياسي، إنه أمر ينفرد به الإنسان فِي الطَّبِيعَة لأن له باعثا، لَه جذورا، وفي معظم الأحيان سامي.. إذ إنه يتضمن قتل (فكرَة) أكثر من قتل كائن حي.

حقيقَة الأمر أنّ السياسَة الْعقابية الْمعروفَة لا تهتم بالْباعث فِي التّجريم؟! ولكن لَه أهمية عند إيقاع الْعقاب.. هَذَا وإن يكن للباعث الشّريف أثره الذي لا شك فيه من حيث تخفيف الْعقاب بمعرفَة الْقاضي فيما بين الْحدَّين للعقوبَة "الأقصى والأدنى" أو تطبيقًا لأسباب الرَّأفَة عملًا بنظام (الإباحَة) وقد اعتبر الْباعث شريفًا فِي الْجرائم السياسية لأن مرتكبها لا يعد عليه أدنى مصلحَة من فعله، بل يُضارُّ منها بنسبَة كبيرَة؛ ولذا قيل إنَّه يتمتع بحق اللجوء السياسي وعدم التّسليم.. فهل هَذَا يطبق فِي الْواقع أم يقع علي الْمجرم السياسي ما لا يقع على الْمجرم الْجنائي؟!.

٢٢

شعرت بيد على كتفي وأنا أسترسل مَعَ الْكتابة.. وعندما الْتفتُّ وجدتُها.. الْفَرَنْسِيَّة.. وراء ظهري؟! فهل ستبدأ الْغزل، أم النَّاقة الْحمراء ستبدأ معي معركة أخرى للإبل؟ اعتدلت ناحيتها فِي جلستي واستمرت لحظات الصَّمْت.

- لماذا تهرب مني أتتجاهلني أم نسيتني؟.
- أنت لا تُنسي.
- لن أعطل برنامجك، أريد عنوان الإقامَة، حتَّى أُرسل لزوجتك هدية ردًّا على هدية الْحجاب الأنيق.
- من قال لك إني متزوج؟.
- هي يوم الاحتفال، ووقتها.. ساعدتني أنت كثيرا بمعرفتي بـ (بورحاب) الْجزائري. أتعاني من زهايمر متقطع! .
- هل هَذَا يعوق زواجي من فرنسيَّة؟! .
- ستدخل السجن ففرنسا، لا تعرف تعدد الزوجات.
- ألا تجدين لي حل؟ فالعاشق الشرقي اوجد حلولا..اعتقد أنها لاتعجز العاشق الغربي؟.

قامت عاجلَة، فأعطيتها الْعنوان، وانصرفتُ معها، عند مخرج الْمكتبَة، لهوت معها قائلا:

"هُنَاكَ بُقَع حمراء على التّايير من الخلف".

انزعجت والْتَفَّت، ولكنها اكتشفت لهوي، قالت غاضبَة وقد احمرَّ وجهها وتغيَّر المْزاج.

لن ينتهي غرامك بالشبق!.

تركتني.. فهل الْفرنسيات لا يفهمن الدُّعابَة؟ !.

٢٣

إننا نعيش عالَة على الْغرب، لقد اكتُشِفت أن الْغرب لا يقوم بالتَّنقيب عن آثارنا فقط، وترميمها فحسب، بل يقوم بترجمَة النُّصوص من الْبرديات، والجداريات الْمصرية الْقديمَة إِلَى لغته هو؟! فالغرب، يكتب تاريخنا الْقديم، لم يكتف بتاريخنا الْحديث الَّذِي صاغَه على هواه؟! يبدو أن أساتذَة الآثار عندنا لا يعرفون الهيروغليفية، ويعتمدون على ترجمات الْغرب! إذا بحثت عمن يكتب تاريخنا الْفرعوني ستكتشف أنه الآخر! الأجانب بمن فيهم اليهود والإسرائيليين، هم الذين ينقبون ويكتشفون ويسجلون النُّقوش والنصوص. بردية (كتاب الْموتى) محفوظة لديهم بالْمتحف الْبريطاني "جيمس برمسيتد" امتلك قدرَة الْبحث فِي كل النُّصوص الَّتِي تم اكتشافها حتَّى أوائل الْقرن الْماضي وقام بترجمتها للفَرنْسِية ولم تترجم للعربية حتَّى الآن! نحن نفاجأ بأن هُنَاكَ اكتشافات حديثَة تملك برديات أو نصوص تدخل الرَّيب و الشّك فِي ما عرفنا، هُنَاكَ أخيرًا ما يعرف بمخطوطات (الْبحر الْميت) منعت إسرائيل الْباحثين من الاطلاع عَلَيْهَا، وكل بضع سنوات تخرج علينا بمعلومَة وتقول وجدناها فِي هذه الْوثائق؟ !.

إنَّه الْمَوَّال اليومي الَّذِي أسمعه من زوجتي، فقد أصابتها لعنَة الْفراعنَة، إنها منكوشَة الشَّعر، مُنْكبَّة على كتب، وقصاصات لصحف، وفي كل يوم أستعير لها الْمزيد من مكتبَة جامعَة ليون، لم تعد مشغولَة

بالمطبخ، ولا الشوبنج، ولا علي، واعتذرت عن برنامجها لزيارَة المستشفيات. أصبحنا نأكل الطعام السريع الجاهز، وأصبح علي يحب بابا أكثر - يقولها نهارا جهارا- وهِيَ لا تهتم! فأنا الحريص على شربَة اللبن، ولو كلفني ذَلِكَ بضع ساعات فِي "البرك" أو "الزو" كما يهوى مذاجه.

أحاول التُّخُول للزوجَة.. أُلاعبها أحيانا.. فبملاعبَة الأحبة نصح نجيب محفوظ!! فأظهر اهتماما بدنيا الفراعنَة، ولكني أمل، وأرجع فِي كل محاولَة أردد: فعلى نفسها بغت براقش!!.

أنا - ماذا لو كنت السَّادات، وقال لك بيجين كم هِيَ عظيمَة الأهرام الَّتِي بناها أجدادي اليهود القدماء؟.

زوجتي- أقول لَه، يا بيجن، شد اللحاف عليك.. واتغطى كويس.

وتقولي إيه لابنك علي وهو بيدعي "ربِّ لا تذرني فردا"؟.

تغالط، وتهرب، وكأنها لم تسمع، وتستمر فِي توهَة الفراعنَة.

تصور أن "إيمانويل فليكوفسكي" أقحم الوجود اليهودي فِي ثنايا تاريخ مصر قرأ "فليكوفسكي" دراسَة فرويد عن "موسى والتوحيد" فكانت هذه القراءَة هي نقطَة التحول فِي حياته وبعدها نذر نفسه وعلمه لهدف وحيد أسماه "الطب النَّفسي التاريخي" وبه فسر التاريخ واختار تاريخنا نحن المصريين بالذات؟.

وأعود لنفسي وأسأل من يُوقِف القطار؟.

وأُردِّد: على نفسها بغت براقش!!.

هِيَ تستمر ولا تتوقف !.

- لأن لا أحد غيرنا فِي الْعالم يُسمح لَه بذلك.. كتب كتابه عن "أوديب وأخناتون" والذي جاء تشويها متعمَّدًا لعقيدَة التّوحيد بهدف هدم شخصية أخناتون فتحوَّل أخناتون عنده من داع إِلَى فكرَة التّوحيد إِلَى مجرد حامل لشعور عدائي تجاه أبيه، ومرتبط مَرَضيا بأمه، وبالتّالِي فكل ما جاء به من إصلاح ديني لم يكن غير ترجمَة لخيال مَرَضي مكبوت، فأخناتون هو الأصل التّاريخي لشخصية أوديب، وهو لم يشته أمه فحسب بل زنى بها! فأخناتون ليس ثائرا أو قديسا، لكنه مجرم خسيس قتل أباه ليزني بأمه. تصور؟! وانتهى فليكوفسكي هَذَا من كتابه "أوديب وأخناتون" سنَة ١٩٤٥م وأُجل نشر الْكتاب لعشرين عاما ليصدر الْكتاب سنَة ١٩٦٥م؟! ليرحب به الْغرب واليهود. إنها الْبداية لرفع فكرَة التّوحيد عن الْفراعنَة، ثم يحوِّلنا السيد فليكوفسكي إِلَى "حرامية" لفلوس اليهود وثروتهم؟! .
- كيف؟؟ وليس بعيدا أن يقيموا علينا مستقبلا دعاوي استرداد؟
- الثروَة الَّتِي جمعتها أمَّة اليهود وتراكمت على مدى مئات السنين من الْعمل، والاستقرار على أرض فلسطين، والغنائم الَّتِي جمعها الْملك شاؤول محرر الشّرق، ومن بعده الإمبراطور داوود وأضافَه لأرباح تجارَة الْملك سُليمان مَعَ آسيا وأفريقيا وهدايا ملكَة سبأ.. كل ذَلِكَ لهفة الْملك تحتمس الثالث كما هو منقوش على معبد الْكرنك، فيكون الْمصريون سرقوا كنوز اليهود!!.
- وهل الأمر مكتوب على جدران الْكرنك؟!

- إنه يدعي أنها الْقراءَة الصحيحَة، لأنه وحدَه الَّذِي قرأ باطن النَّص وربطَه بغيره!! وعلى نفس الشَّاكلة تحدثوا عن الْوجود التَّاريخي لليهود فِي مصر- الْفرعونية، كتب ذَلِكَ فِي كتب ثلاثَة حملت عناوين "من الخروج إِلَى الْملك أخناتون"، "الأرض فِي اضطراب" وكتاب "رمسيس الثاني وعصوره" وتشكل هذه الْكتب مُحاولَة وظفت مختلف الْمعارف الْعلمية بما فيها الْجيولوجيا لإعادَة ترتيب الْمفاصل الأساسية لتاريخ مصر- والشرق الْقديم. اعتمدت على فكرَة ضبط إيقاع أحداث التَّاريخ الْمصري مَعَ إيقاع التَّاريخ الإسرائيلي، عملية رتق وقص ولزق، بل كسر- عنق كل الْحقائق. التَّاريخ الإسرائيلي الذي يقف دون شواهد أو توثيق يؤكد مصداقيته حتى الْقرن التَّاسع قبل الْميلاد، أُعيد اختلاقه وضعيا بهدف له غرض.
- أتقصدين أنهم فعلوا ما فعلته الْممثلَة "برجريت باردو" حين سبَّت الإِسْلام والْمسلمين بسبب أضحية الْعيد الْكبير، وفي الْمحكمَة أعلنت أنه ناموس فاسد؛ لأن ذبيح النَّبي إبراهيم هو ابنه "إسحاق" وليس ابنه "إسماعيل"؟!.
- شيء يُشبه ذلك.. فمثلا: الذي دمر جيوش الهكسوس ليس أحمس الأوَّل، لكنه الْملك شاؤول.. أول ملكوهم! هَذَا الْملك هو الذي حرر مصر من الهكسوس!! وغيَّر مسار التَّاريخ فِي الشَّرق وأتاح لمصر أن تنهض من جديد! مفتاح النَّظرية الْمخربَة هو خلق تزامن بين التَّاريخين الْمصري والعبري مغفلة فجوَة عمرها ستمائة

عام؟! لا تتردد في اختلاق كل الوقائع لسدِّها، وحتى استخدام كل علوم الدُّنيَا الحديثة جاعلة الوجود الدِّيني ملتصق بالوجود التاريخي؟ !.

ليصل إلَى أن المَلكَة حتشبسوت كانت معاصرَة للملك سليمان وأنها بالتَّأكيد ملكَة سبأ التوراتية الَّتِي أتت إلَى أوراشليم عاصمَة الإمبراطورية الإسرائيلية القديمَة فبلاد "بونت" الَّتِي أبحرت إليها حتشبسوت هي أوراشليم- أرض الإله- وليست سواحل الصومال أو جنوب شبه الجزيرَة العربية كما هو ثابت تاريخيا؟ !.

فأوراشليم هِيَ الَّتِي بهرت حتشبسوت بفنها المعماري اليهودي وخَاصَّة هيكل سليمان، فرجعت لتشيد على شاكلته معبد الدير البحري !! إنَّه تهويد تاريخ مصر.

- وأنت حتثبتي إيه يا حرم آمون رع؟.
- أثبت أن عصر أحمس الأول لا يتزامن مَعَ عصر- شاؤول وداود، وعصر حتشبسوت ليس هو عصر- سليمان، وأن عصر- تحتمس الثالث لا يوازيه عصر رحبعام بن سليمان، إن لديهم مشكلَة الفجوَة التاريخية من كون ملوك إسرائيل عاشوا في القرن العاشر قبل الميلاد كما هو ثابت في التاريخ الإسرائيلي وطرد الهكسوس على أيدي أحمس الأول تم في القرن السَّادس عشر قبل الميلاد (١٥٨٠ ق. م) هذه الأعوام الستمائَة غير المفسرَة والمجهولَة، غطاها تاريخ موثق ومتتابع ومدون للتاريخ المصري.
- الفجوَة التاريخية لا تزال قائمَة؟.

- كيف؟
- إننا إذا لم نُعجِّل سيكون الْفرق بين علي وأخيه أكثر من ٦ سنوات وأكون بدأت الْعقد الخامس.
- لست مستعدَة لطفل، علي أخذت لَه ٤ سنوات إجـازَة، وهِيَ الْمـدَة الْقانونية الْمسموحَة، أريد أن أرجع لعملي، سأعوض ما فـات بهـذه الْبحوث.

وصلت طعنَة بروتس للقلب، فأخذت علي وتركت الأبيت، لا بأس بالْحديقَة الْقريبَة، واللعب مَعَ الصَّغِير، كم هو جميل فِي هذه السن كيف لم أَثُر، وأكسر الأطباق، وأحطم الْمرايا؟ كيف لم أهدد بحب امرأة سواها؟! أكبرت !! أكبرت على الثورَة.. ولم أكبر على الْحب! أم أن الْحب طاغية يتيه فوق كافَّة الْقِيَم وفي ركابه ننسى أعمارنا، لا تُكمله الْفضائل، ولا تنقصه الْمثالب، نقائصنا تلوح فِي تاجه حسنا؟! أم أني نوع من الْبشر، أحب أو أموت! .

وصلنا لباب الْبنايَة، نظرت كما تعودت على صندوق الخطابات لعل أحدًا من الْمحروسَة يرسل بخبر، وجدت خطابا غريبا بخط عربي نسخ على مظروفه الْحروف فيه بدون همزات!! بالإضافة إلى العنوان دقيقًا بالفرنسية أفتحه.

وأقرأ

جَمَلي الْجميل.

من: هرهورَة (جنوب الرِّباط) على شاطئ "كازينو الساحر" هَذَا الشَّاطئ يقصدنه النِّساء مُنْذُ الزمن الْقديم، يأتين ليُغطسن أجسادهن السمينَة سبع مرات فِي موجات سبع طلبا للزواج، أو رغبَة فِي الإنجاب السريع.؟! أنا هُنَاكَ حيث الْحياَة بلون الْبحر.

الأحباب دوما بين أحضان الْوجدان وعلى جدران الذاكرَة لوحات جميلَة لا يأتي عَلَيْهَا غبار النِّسيان.. أحبك.. وأُقَبِّل مفاتنك الْمتردِّدَة، ذكرياتي معك تكفيني، وتعصمني من فتنَة الرِّجَال فيما بقي من الْعمر!! فكم كنت نبيلا، حين خفت على عذريتي وقت الذروَة. هَذَا إحساس نادر فِي الْعشق.

كشفت سري ولكن أتحبني رغم ما كان؟! لأني أحرص على هَذَا الْحب الَّذِي نتائجه مستحيلَة.

أحكي قصتي:

سبق لِي أن أُجْهضت! كان الْفاعل من الْمحارم؟! كسر قلتي !! وبالتالي لم يكن الْحل الزَّوَاج، إنك لا تعرف كيف تم الأمر معي؟ ماذا فعل الرِّجَال والنساء، كيف تجد الْكراهية باسم التبرك بالدين، لقد حرمت بسبب الْقسوَة والجهل والخوف والسرية من أن أكون أُمًّا فِي الْمستقبل؟ اجتمع عليَّ نساء الْقبيلَة بخبرتهم الْجاهلية فِي إسقاط أنثى اعتبروها عاهرَة، فأسقطوها للأبد.

الإجهاض[1] إذا لم نجعله أمنا فإننا نجعل المشكلة مضاعفة فبدلًا من التضحية بجنين غير مرغوب سنضحي بامرأة! فالإجهاض غير الآمن مشكلة حميمية أفقدتني الأمومة. ولا ينبغي أن تخاطر النساء

---

(١) نظرية المنع المطلق للإجهاض هي رأي قديم به نادى الفاتيكان وبه ينادي المسلمون.. فهو يرى أنه لا إجهاض ولا إباحة له تحت أي خطر.. ولا يمكن إيقاف إرادة الله العظمى على الأرض. ويبدو أنه الوضع القانوني المستقر في (مصر) م٢٦١: كل من أسقط امرأة حبلى بإعطائها أدوية أو باستعمال وسائل مؤدية إلى ذلك سواء أكان برضاها أم لا يعاقب بالحبس.

م ٢٦٢: المرأة التي رضيت بتعاطي الأدوية مع علمها بها أو رضيت بتعاطي الأدوية المسببة لإسقاط الحمل تعاقب بالحبس.

- وتحت إلحاح الواقع أيهما أفضل: الإجهاض أم ترك الطفل بعد ولادته على باب ملجأ؟ أيهما أفضل الإجهاض أم الولادة وبيع الطفل غير المرغوب فيه ليكون قطع غيار لأجساد الأغنياء أو العمل في الخدمة بالمنازل مجانًا؟

ماذا نفعل في ابن الزنا؟! وما تفسير ما جاء في سفر التثنية " لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب " تثنية- ٢٣: ٢.

سادت نظرية الإجهاض الاحتياطي التي تقوم على أساس أنه لا يمنع الإجهاض مطلقًا وإنما يقبل احتياطيا في (حالات الابن غير المرغوب فيه) مثل الاغتصاب (عدم معرفة الأب)، تجربة المراهقة الأولى، الجنس بالاضطهاد في حالات الحروب،

وفي هذه الحالات لا بد أن يتم الإجهاض في مستشفى مجهزة لذلك وتحت إشراف طبي، غير سري لضمان سلامة المرأة وعدم تعرضها للخطر أو الابتزاز، ولكن أهمية النظرية أنها ترد الأمر لأصحاب القرار، إنها تعلن أنها ضد الإجهاض الهندي (في الهند تقوم الدولة نفسها بإسقاط الجنين إذا كان أنثى تحت مقولة أنثى واحدة في الأسرة تكفي) والإجهاض السياسي: حيث تقوم الدول في حالة الحرب بإجهاض النساء الأسرى... وفي وقت السلم تجعل الإجهاض وسيلة إجبارية لتنظيم الأسرة.

بحياتهن وصحتهن وإننا علينا ألا نكون كالنعامَة ونضع رؤوسنا فِي الرِّمال: فعندنا عدَّة إحصائيات ٢٠٠٠ طفل لقيط يُعْثَر عليهم فِي شوارع المْغرب سنويًا!! أهذا يكفي؟ !.

كيف تحافظ على ذكراي مَعَ كل سيجارَة مينتول فتشمني برائحَة التَّعناع! لعلك تسأل نفسك كيف تركت هذه المْجنونَة فرنسا الآن؟ حلم الهجرَة، المْعادلَة الْقانونية للعمل فِي بلاد الجْن والمْلائكَة كما تقول، كنت أهرب من الخوف، أمَّا الآن فقد دخل الخوف بيتي حطَّم ما بقي من أسرتي، سجنوا أخي فِي قضية رأي سياسيَّة.

اللسان الَّذِي يقول لا، يقطعه "إدريس الْبصري" فِي المْغرب، هَذَا النَّوع من المْسئولين الذين عندما يذكر اسمهم ترتجف الأبدان وتقشعر الأرواح، الرَّجل الْحديدي فِي النِّظام المْلكي المْغربي كان والده يعمل حارسا فِي أحد السجون الْمَغْرِبية، لكنه أصر على أن يكمل ولده إدريس تعليمه. حتَّى يحقق حلمه بأن يصبح ضابط شرطَة، وفي المْغرب بعد الاستقلال لم يكن صعبا أن يصبح واحد من عامَة الشّعب ضابطا. هكذا دخل إدريس عالم الأمن المْغربي السِّرِّي، وترقى فِي مناصبه تدريجيا حتَّى أصبح فِي وظيفَة تقترب من مُساعد وزير داخلية المْغرب فِي سنوات السبعينات، ولعب دورا أساسيا فِي طبخ الانتخابات الْبرلمانية الَّتِي جرت فِي هذه السنوات، حتَّى يبدوا الأمر وكأن هُنَاكَ ديمقراطية حقيقية فِي الْبلاد؟ !.

حتَّى أُعجب به المَلك الحَسن الثاني وقربَه أكثر منه وأصبح رئيسا لجهاز المُخابرات، ثم وزيرا للداخلية عام ١٩٧٩ بل وضم إليه أيضا وزارَة الإعلام عام ١٩٨٩ ليحول جهاز التّليفزيون إلى نشرَة أمنية بحتة وتَحَرَّكَ إدريس بصري مستخدما الْقوَّة والعنف مستهدفا حماية النِّظام المَلكي المَغربي من التّهاوي وهو فِي ذَلِكَ كان يحمي نفسَه، ونفوذَه، وسطوته بطبيعَة الحَال، قبل أن يحمي المَلك والمَلكيَّة.

لكن اسم إدريس ارتبط وقد ظل فِي منصبه الْمُرعب حتَّى الآن كوزير للداخلية بالعديد من عمليات التّعذيب فِي السجون للمعارضَة الْمَغْرِبية والاختفاءات الْقسرية لمواطنين مغاربَة، وأصدر الأوامر بالاعتداء على نسائهم جنسيا، بالإضافَة إِلَى اتهامه باختلاس المَلايين بحكم منصبه الْمُهم ومقتل ١٠٠٠ مغربي ودفنهم فِي مقابر جماعية فيما عرف (بإضراب الدار الْبيضاء الشَّهير عام ١٩٨١م).

أعود للبعبع، لخوفي، لما هربت منه، أعود وأنا أعلم أني أنتحر ولكنه سيكون موتا جميلا؟! سأحارب معركَة أخي بالقانون بسلاحي الَّذِي أعرفه فهل ممكن أن انتصر! فأحبني حتَّى أقتل خوفي، فدعوَة المُحبين مثلك لا يردها الله، فلا تسئ بي الظن، فمعك كانت صحتي، فالحُب كالصحَة، بك الْوصال وبغيرك الْفراق. كم كنت نبيلا، حين خفت على عذريتي وقت الذروَة. هَذَا إحساس نادر فِي الْعشق، ولكني.. يا أغلى النَّاس أحبك للأبد.

"زبيدَة"

٢٤

كان الْوقت ذات مساء حين دق جرس الْباب.

نحن نستغرب ذَلِكَ بالطبع؟ فلا أحد لنا بفرنسا.. خففت من إزعاج زوجتي، بأنها ستتسلم الآن هدية - كوعد الْفَرَنْسِية السَّابق- الذي حصلت بناء عليه على عنوان منزلنا. ولكن كانت مفاجأة أخرى عند فتح الْباب؟! .

فرنسي فِي زي حكومي يُسلِّمني "إعلان" بمثول زوجتي أمام قسم التحقيقات الخَاصَّة بليون؟ !

أسأله: لماذا؟! وكيف عرفوا عنوان بيتنا؟ وما الْجرم؟.

لا إجابَة.. إنه موظف عمومي يحمل أسفارا. أوقع على الإعلان فِي ذهول، وهو إعلان بلا أي هوية يعلنها بالْحضور خلال ٤٨ ساعَة السَّاعَة ١٠ص للإدلاء بأقوالها فيما هو منسوب إليها، أمام قسم التحقيقات الخاص، وهو يشبه النَّيابَة عندنا، وهو قسم يعرف بالشرطَة الْقضائية أي له عمل الاستدلالات وبعض أعمال التحققات.

كانت ليون لا تستهويني، وكنت أهرب منها لباريس، ونيس، ولولا الْمنحَة والدراسَة فِي جامعتها ما فكرت حتَّى فِي زيارتها.

إن الأحياء فيها لها أرقام لا أسماء !! وفيها كثرَة من عرب شمال أفريقيا الذين لا يقيمون علاقات حميمَة مَعَ الْمصريين؟!

وفي الاستاد الخاص بِهَا أعيدت لأول مرَّة مبارَاة رسمية فِي كرَة الْقدم بين منتخب مصر ومنتخب زيمبابوى الأفريقي، كانت مصر

فائزَة فِي نفس الْمبارَاة بالقاهرَة ولكن طوبَة من مُتَفرِّج غير معروف بالْمُدرَّجات بالقاهرة، وتمثيلية ساذجة من الْفريق المنافس، ونوايا سيئة وسياسَة وقلة حيلَة مصرية أعادت الْمبارَاة؟! لتخسر مصر الْمبارَاة ومعها أمل الذهاب لكأس الْعالم؟! ليخرج عرب شمال أفريقيا والفرنسيين مبتهجين بفوز زامبيا!!

لذا لم تكن ليون تميمَة حظ بالنِّسْبَة لي ولا للمصريين.. فلقد أعطت ما عندها لمصري وحيد هو "طه حسين".

اكتشفتُ بمناقشَة زوجتي بدقَّة فِي الأمر.. أنها أخفت أمرين وأتمنى أن يقتصر ما أضمرته عليهما فهِيَ تُضمر الْكثير كعادتها.

الأول: أنها لا تزال تُدمن حبوب منع الْحمل!!.

الثاني: أنها أرسلت بمقالة لمجلَة فرنسية بعد أن استولت عَلَيْهَا لعنَة الْفراعنَة، ولكن الْغريب أنها وقَّعَت ما كتبته باسم استعراضي: (مصرية فِي باريس).

(مثلما "هوَدُو" تاريخ ألْمانيا بالهولوكست، فغُرَف الْغاز الَّتِي صدَّعوا رءوسنا بِهَا كانت تستخدم فقط لتنظيف الْملابس من الْبقع! يبدأ اليهود الآن تهويد تاريخ مصر!! وقد نشر مفكر فرنسي يُدعى بيير ماريه فِي دوريَّة (تحقيق ومراجعَة) الْفَرَنْسِية فِي سبتمبر ١٩٩٢ مقالا من ٣ صفحات بعنوان "غُرَف الْغاز التَّازية حالَة خاصَّة" تناول فيها الْمحرقَة التَّازية من زاوية علمية فقال إنه لو كان الأساس الْعلمي صحيحا فإن الْفكرَة الَّتِي يروج لها اليهود عن اختناق كل هَذَا الْعدد فِي غرف الْغاز أمر غير ممكن علميا وعمليا - بسبب كمية الْمياه

الرَّهيبَة المطلوبة لتنفيذ ذَلِكَ الأمر.. وقال فِي النِّهاية الهولوكوست غير صحيح وغير ممكن منطقيا. ونقول إن ما سُطر عن أخناتون، والنبي يوسف، وأحمس، وحتشبسوت غير صحيح وغير ممكن منطقي. وذلك على التّفصيل الآتي:.....).

أهذه السطور الَّتِي بدأت بِهَا زوجتي مقالتها، وأرسلتها لمجلَة "ليبراسيون" الْفَرَنْسِية كافية لكل هَذَا الرُّعب - رغم أن الْمقالَة لم تُنشر.؟!

أفهم الآن "الْبير كامي" حين يقول: إن ما يُعطي قيمَة للتَّرحال هو الخوف! إننا نُسافر للمُتعَة، كذبَة نُصدقها، ليس هُنَاكَ أي متعَة فِي السفر، ولكنه فرصَة للامتحان الرُّوحي، فالسفر يعيدنا مرَّة أخرى إِلَى أنفسنا.

لا أستبعد أن تستبدَّ بي -عندما أعود لمصر- لوثَة تجعلني كلما صحوت كل نهار أتلقى أمي بالأحضان فِي لهفَة شديدَة انبهارا للحقيقَة الْعجيبَة أنها بجانبي وأراها كل يوم!.

بقي عندي سؤال مُؤرِّق. كيف عرفوا عنوان منزلنا؟ !.

"زبيدة" أرسلت عليه خطابا! وهاهو قسم التّحقيقات الخاص بليون! .

أهو أحد معالم فرنسا الْحديثَة؟! وإذا كان هكذا، فلماذا جهلت ذَلِكَ الْفرنسية بنت الْفَرَنْسِية، ذات التّعابير الْقصير؟! .

كان السُّؤَال الأخطر هو الذي فجرته زوجتي، كيف عرفوا اسمها ثلاثيا وقد وقعت باسم كودي "استعراضي رجعي"؟ .

دق جرس الْباب مرَة أخرى؟.

فتحت الْباب طَلَّت الْفَرَنْسِية بلحمها، وتاييرها الْقصير كان لونه أصفر فاقع، ليس هَذَا وقت الأصفر؟ !.

الغريب أنها قبَّلتني على وجنتي.. فكاد يُغشى على زوجتي، أما أنا فنسيت الزمان والْمكان! أخرجت هديتها وقدمتها لزوجتي- زُجاجَة بارفان مبهجة- باحت زوجتي، وهِيَ تبكي على صدرها بكل شيء. ما إن رأت الْفَرَنْسِية نُسخَة الْمقالَة الْمُرسلَة لمجلَّة "ليبراسيون" الْفَرَنْسِية حتَّى حلت اللوغاريتم؟.

الفَرنْسِية - أُووه إنَّه قانون "جيسو"، شَوْكَة الْحالَة الْفكرية فِي فرنسا قانون مُنْذُ صدوره عام ١٨٨١ نص على "تجريم كل محاولَة لمراجعَة الْحقائق التّاريخية الَّتِي تؤكد وقوع جرائم ضد الإنسانية بالذات تلك الَّتِي وقعت ضد اليهود، لتظهر تهمَة معادَاة السَّاميَة" [1].. فالشك فِي

---

(١) تنظر التّوراة إلى الأمم والأجناس الّتي خرج بهم النّبي موسى من مصر، ومن انضم إليه من الشّعوب الأخرى أنهم كيان واحد، وبذلك يَكُون يهودي كل من يعتقد في الديانة اليهوديّة، فتكون اليهودية خليطا بين شعوب سامية وغير ساميّة. ولقد فشلت كل الْجهود الّتي بذلت من أجل إثبات تاريخية أحداث قصة الخروج ولم يستطع الْمؤرخون وضع هذه الأحداث ضمن إطار تاريخي محدد.
الذي اقترح اسم السّامية الْعالم الألْماني شلوتزرر للدلالَة على مجموعة الشّعوب الّتي عاشت في الطرف الْغربي من الْقارَّة الأسيويّة، مرتبطَة لغويا وتاريخيا وحضاريا، وهي الّتي تضم الْعرب والْبابليين والأشوريين والأراميين والسريان واليهود وبعض قبائل الْحبشَة، ويقول الْعالم الْفَرَنْسي الأب هنري فليش: إنه ينبغي أن نفهم من استعمال كلمَة السّامية أنها ليست أكثر من مجرد مصطلح لتيسير الأمر على الْباحثين دون قصد إلى أي دلالَة عنصرية.
انظر، حسن ظاظا: الْفكر الدّيني أطواره ومذاهبه، دار الْقلم سوريا ١٩٧٨ ص ١٠٣ - ١٠٤.

الهولوكوست، أو التّشكيك في أعداد اليهود الذين ماتوا في الهولوكوست هو نهاية العالم، الأمر ليس سهلا.

زوجتي- ولكن مقالَتي عن الآثار، عن تهويد تاريخ بلادي؟!

- ذكرتي الأمر في بداية المْقالَة (مثلما "هوَدو" تاريخ ألْمانيا بالهولوكست، فغرف الْغاز الَّتي صدَّعوا رءوسنا بِهَا كانت تُستخدم فقط لتنظيف المْلابس من البُقع !) ثم إن الأمر في أساسه ضد اليهود، ضد السَّاميَّة.

إنَّا - الْعرب "ساميون" يا سيدتي كيف نكون ضد أنفسنا؟! إن اليهود يعتبروننا أولاد عم.. فالجد الأكبر لنا النَّبي إبراهيم؟ !.

- إن قانون "جيسو"، يحرم علينا الاقتراب من الْفترَة بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٦ ويتركنا أحرارا لندرس ال٤ آلاف سنَة تاريخيا كما نشاء؟! فلقد عُوقب بهذا الْقانون المْؤرخ اليهودي "برنارد لويس" لأنه شكَّك في مذبحَة الأرمن الَّتي ارتكبها الأتراك، وحكمت عليه المْحكمَة الْعُليا الْفَرَنْسِية رغم أنه يهودي، لأنه اقترب مما يُسمى حقائق في الْفترَة المْعنيَّة.

أنا وزوجتي - المْقالَة لم تُنْشر؟

- نقطَة لصالحْنا، ولكن أصل المْقالَة في المْجلَّة، ونحن لا نعرف مَن أصحابها، ولا اهتماماتهم، ولا المْصالِح الَّتي تعنيهم، ولا علاقاتها بالجمعيات الْكثيرَة اليهوديَّة. على كل حال ممكن بحث الأمر غدا في الْجامعَة، أستأذن بالانصراف الآن.

٢٥

من ينتظر للغد أيتها الْفَرَنْسِية !!

ليس أمامنا سوي ٤٨ ساعَة – أتمثل زوجتي أمام إدارَة التحقيقات عن جريمَة وهميَّة وقد تُحبس احتياطيا رهن التَحقيق وقد....؟! هل يمكن ألا يجد ابني والدته معه؟ !.

تكوَّرت زوجتي على ابنها آخذة وضع الْجنين، وكأنها تودِّعه دموعُها تنزف – لم أرها يومًا بهذا الانهيار.

أمسح دموعها وأُهدئها دون جدوى.. أحتمي بالْعَقْل، والْمنطق وأنا أُهدِّئ من روعها.. كانت تقول:

– ناس ما تعرفش ربنا!!.

– والله أنت مكدبتي[1] لا ذِكر في التوراَة لبعث وجَنَّة ونار وحساب وآخرة، دائمًا مكافأَة الله لعباده وعقابه لهم يَكُون فوريا ودنيويا؟!.

---

(١) كل ما تقوله التّوراة حينما يضطجع أنبياؤها ليموتوا إنهم يـذهبون إلَـى أرض "شول" الّتي لا رجعَة منها، والجنّة الّتي تعد بهَا التّوراة هي نعمَة دنيوية.
" يُبارك الرّب ثمرَة بطنك وثمرَة أرضك.. قمحك وخمرك وزيتك ونتاج بقـرك وإناث غنمك.. يعطيك قوة لتصطنع ثروَة.. يجعلك الرّب رأسًا لا ذَنَبا.. يعطيك أرضا تفيض لبنا وعسلا.. يُطيل أيامك"
أما الْجحيم فهو لعنَة تنزل بصاحبها في الدُّنْيَا؟!
"يُلصق بك الرّب الْوباء حتى يبيدك عن الأرض.. يضربك بالسّل والْحُمى والْبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول. تكون سماؤك الّتي فوق رأسك

ماذا سنفعل؟

هل لنا فِي فرنسا شيء.. ما رأيك لو تركناها؟! إن لدي خطَّة ذات نتائج مزدوجَة، فتكون خطَّة هروب، وقد تكون كوميديا نضحك منها، الأمر يتوقف على الخطورَة.. المُهم لا تسألي انطلقي معي بالتَنفيذ.

اهتمت، وأعطتني الاهتمام المَطلوب، هزت قلبي من الأعماق لحزنها، فعدت لبقايا الفُرسان بداخلي، بسطت راحَتَيَّ للسماء:

"اللَّهُمَّ اجعل حُزننا رمادا كما قلت لنار "إبراهيم" كوني بردا وسلاما".

ضحكت وهِيَ تمسح دموعها فأدركت أن التَحلَة فطرتها الطَّبِيعَة ملكَة؟ إنها من أسرَة بشوات، من الذين لا يعرفون الضغوط.

سأهبط لأتدبر خطورَة هَذَا الإعلان.. وأنت ستهبطين بعدي ومعك علي، فتذهبي للكوافير فتقصي شعرك قصيرا، ثم تشتري باروكة صفراء، ويثبتها لكي الكوافير بإحكام، واشتري أيضًا بانطلون جينز ضيق آخر صيحَة، لا أريد أن أرى هَذَا الاندهاش فِي عينيك، إنها خطَّة هروب.

إلا من أمل أن تكون مجرد كوميديا نضحك منها؟!

نحاسا والأرض تحتك حديدا.. ويجعل الرَّب مطر أرضك غبارا.. ترابا ينزل عليك من السماء حتى تهلك.. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها.. تبني بيتا ولا تسكن فيه، يذبح ثورك أمام عينك ولا تأكل منه " وهذا موجود في (سفر التَثنية إصحاح ٢٨). انظر: مصطفى محمود - التَوراة - دار المعارف -١٩٩٢ م.

تركت المنزل قبلها حاملا مجموعَة من ملابسنا القديمَة، واتجهت بِهَا إِلَى المغسلَة وطلبت غسلها وكيِّها، كنت أحب أن يظهر الأمر وكأننا فِي حياتنا العادية! وقبل الذهاب لمكتبَة الجامعَة، اشتريت تذكرتين سينما حفلَة المساء للتمويه!! إحساس بأني مراقب - وإن كنت غير واثق من صحته - يفرض عليَّ إتقان الهروب. كانت لعبَة السِّينمَا فِي خيالي مُنْذُ فعلها السَّادات يوم قيام الثورَة !.

وفي مكتبَة الجامعَة تبيَّنت خطورَة قانون "جيسو"، [1] فلم تكن الفَرَنْسية مبالِغَة - هكذا عرفت الأمر من ملفات المحاكم المطبوع أحكامها سنَة بسنَة بمكتبَة الجامعَة.

---

(١) منكرو وقوع المحرقَة انطلقوا جميعا من عباءَة مفكر فرنسي يُدعى " بول راسينيه " نشر عام ١٩٥٠ كتابا بعنوان (أكذوبَة أوليسيوس) ذكر فيه أن المحرقة مجرد مؤامرَة يهودية عالمية، وأن كل الوقائع الَّتِي حدثت فِي معسكرات التَّعذيب كانت مجرد أفعال فردية من رجال الصاعقَة الألمانية، وانضم لذلك المقاتل الفَرَنْسي القديم في صفوف المُقاومَة الفَرَنْسية " موريس باردِيك " ولم يحاكم اليهود راسينيه بقانون جيسو، لكنهم انتقموا منه شر انتقام في شخص تلميذه " روبرت فوريسون".

وكان روبرت فوريسون هو أشهر تلاميذ راسينييه وكان أستاذا للأدب الفَرَنْسي رفض بدوره وقوع المحرقة ضد اليهود كانت بداية إنكاره حقيقَة غُرَف الغاز عام ١٩٦٠ عندما قرأ مؤلفات راسينييه، ووصل إِلَى إقناع تام بعدم حقيقتها. ثم بدأ فِي إرسال خطابات إِلَى صحيفَة لوموند الفَرَنْسية تحمل أفكارَه وفي عام ١٩٨٧ نشر مقاله الَّذِي أحدث ضجَّة شديدَة والذي حمل اسم (أكذوبَة أوشفيت) والذي اعتبره اليهود البداية الإستراتيجية الحقيقية لمنكري حقائق التَّاريخ، وأعقب فوريسون مقاله بسلسلَة من المقالات فِي صحيفتي: لوموند والفرنسيتين يحمل نفس أفكاره المنكر للمحارق بشكل أكثر استفاضَة وتنظيما بين عامي ١٩٨١ و ١٩٨٢. و قرر اللوبي اليهودي أن الأمر قد زاد عن الحدّ مَعَ

كانت هُنَاكَ مسرحية اسمها "صديقي فريدريك" تروي قصة اضطهاد طفل يهودي في ألمانيا فيما بين الحربين العالميتين، مُدرِّس بإحدى المدارس الثانوية الفَرَنْسِية ويُدعى "جان اوي بيرجيه" رأى أن نظام التعليم الفَرَنْسِي لا يقدم الحقائق التاريخية الحقيقية في فترة الحرب العالمية الثانية كما ينبغي، وضع نقطة نظام أمام طُلابه، وعَقِب عرض هذه المسرحية قال: لا أريد منكم أن تتأثروا بكل تلك المشاهد الَّتِي رأيتموها.

تناول الأمر من النَّاحية النَّقدية قائلا:

ستلاحظون أن اليهود الذين ماتوا في مُعسكرات التعذيب أقل بكثير مِمَّا يقولونه لكم، وغالبية اليهود الذين ماتوا لقوا مصرعهم من آثار حصار الحُلفاء لهم في المُدن الألمانية أما "غُرَف الغاز" الَّتِي صدَّعوا رءوسنا بِهَا فكانت تُستخدم فقط لتنظيف المَلابس من البقع.

كانت تلك الجُملَة العابرَة التي نطق بِهَا المُدرس الفَرَنْسِي كافية جدا لكي يبدأ اللوبي اليهودي في مُلاحقته قضائيا وجنائيا ومدنيا!!.

فوريسون. فبدءوا المُلاحقات القضائية ضده وأدانه قانون جيسو عام ١٩٨٢ بتُهمَة العُنصرية وإنكار حقائق التاريخ والتحريض على الكراهية العنصرية. وهاجم فورسيبون عام ١٩٩٠ التعديلات الجديدة على قانون جيسو فابيو ووصفها بأنها مقيدة لحرية الفكر والبحث التاريخي في فرنسا، لكن ذلك الاحتجاج لم يمنع اليهود من ملاحقته قضائيا عدة مرات بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٠.

فقام أولياء أمور الطُّلاب بتقديم شكوى لإدارَة الْمدرسَة ضدَّه وحوكم بموجب قانون "جيسو الْفَرَنْسِي" بتُهمَة الْعنصرية ومُعاداة السَّامية وإنكار وقوع جرائم ضد الإنسانية، وحكم عليه بالْحبس لمدَة ١٢ شهرا وبغرامَة قدرها ١٠ آلاف فرنك مَعَ تهديد صريح بإبعاده من السلك التعليمي فِي فرنسا. وإلى جوار الْمُحاكمَة شنَّت جماعات الضغط اليهودي حملَة إعلامية شرسَة عليه وَصَفَتْه فيها بأنه نازي يبُثُّ سمومه فِي آذان الطُّلاب وتعقبوا كل محام يدافع عنه، وصنعوا له تاريخا أسود يصعب تحديد حقيقته من زيفه.

وعند محاكمة "جان اوي بيرجيه" أمام الْقضاء الْفَرَنْسِي جلست زوجته فِي قاعَة الْمحكمَة تتلوا آيات من الْكتاب الْمُقَدَّس وهِيَ ترتجف، بينما جلس هو هادئا وعلى وجهه ابتسامَة لا مُبالية وعندما سألته الْقاضيَة:

هل تؤمن حقًّا بأن غُرَف الْغاز النَّازية لم توجد قط؟

اتَّسعت ابتسامته اللا مُبالية، وقال:

لماذا تسألونني سؤالا يُجرِّم الْقانون الإجابَة عنه؟ ليس من حقي ولا من حق أي مخلوق أن يفكر بجرد التفكير فِي الإجابَة عن ذَلِكَ السؤال[1].

---

(١) باحث تاريخي هو برنارد نوتين أستاذ الاقتصاد الْفَرَنْسِي بجامعَة ليون الَّذي نشر عام ١٩٨٩ في مجلة " اقتصاد ومجتمعات " الْفَرَنْسية بعنوان: دور الإعلام في تغييب الْوعي الْقومي. أنكر فيه بشكل حاد وقوع الْمحارق النَّازية، فلاحقه اليهود قضائيا بنفس الشّكل الحادّ وحاكموه. ثم أدانوه بموجب قانون جيسو

يبدو أن اليهود لن يتركوا أحدا فِي دراسته يوما واحدا إذا تعلق الأمر بتاريخهم دون أن يلاحقوه ويحاكموه ويمزقوه إربا لو لزم الأمر، وفي نفس الْوقت سيذبحون كلَّ مَن يُحاول إضافَة حقائق جديدَة للتاريخ تضم الْمذابح الَّتِي يرتكبونها هم. فهل يتركوننا؟!

كانت أغرب قضايا مُحاكمَة مُفكِّر بموجب قانون جيسو هِيَ قضية الْمؤرخ الْفَرَنْسِي "جان بلاتين" الَّذِي أصدر٣ أعداد من مجلة تاريخية نشر فيها عدَّة مقالات تتناول الْفترَة فيما بين الْحربين الْعالميتين، وتوصَّل فيها إِلَى نفس الْحقيقَة الأساسية الَّتِي يتوصل إليها كل من يُحاكم بقانون جيسو أن الْمحرقَة النَّازية فِي مُجْمَلها مجرَّد أكذوبَة كبيرَة، وكالعادَة أطلق اللوبي اليهودي قانون جيسو فِي مواجهته. لكن الْمفاجأة الَّتِي اصطدم بِهَا اليهود كانت استحالَة تطبيق قانون جيسو على الدَّوْريات الَّتِي تفصل بين صدور أعدادها مُدَّة زمنية طويلَة، وكانت هِيَ حالَة بلاتين الَّتِي كانت تتخلَّل فترَة صُدور أعداد دورية فِي السوق الْفَرَنْسِي فترَة طويلَة، ألا أن ذَلِكَ لم يوقف اليهود؟! فلم يستخدموا قانون جيسو لعام ١٩٩٠. استخدموا نُسخَة قديمَة للقانون صدرت عام ١٩٤٩ واستخدموا مادَّة فيه تنص على ضرورَة حماية الْقصر من الْمواد الَّتِي تُزيِّف حقائق التَّاريخ ونجحوا فِي تغريمه: ٣٠ ألْف فرنك لـ٣ جهات يهودية مختلفَة، ونصحوه بأن يكف عن الخوض فِي مثل هذه الأمور حتَّى لا تصل غرامته إِلَى الْحد الأقصى الَّذِي يُحدِّده قانون جيسو وهو ٣٠٠ ألْف فرنك.

أَيُمكن أن تدعوني فرنسا لوليمَة للحزن؟! أتكون هذه الأرْض محترفَة للعشق.. والخوف بالتَّساوي؟ !.

قصتي مَعَ فرنسا لها عدَّة بدايات، ولكن تأتي النِّهايات غير الْمُتوقَّعَة إنها مَقالِب الْقَدَر. يُصبح ما حَلمنا به صغيرا، تافها، إذا ما تَعارض ذَلِكَ مَعَ أمْنَنا وحريتنا، سُلَّم الأولويات يتغير فجأة فلا يبقى إلا أمل النَّجاة، ألهذا قال (سارتر) عن الأحلام والأماني: الأمل الْقَذِر !!.

أخرج من الْجامعَة، أتَّجه إلَى صالون حلاقَة على الْجانب الآخر من الْميدان الْواسع، إحساس بأني مُراقب - وإن كنت غير واثق من صحته - يفرض عليَّ فكرَة التَّنكُّر؟! إنه الخوف الْغامض.

أطلب من الْحلَّاق أن يحلق لي شعري "زيرو" وللدَّهشَة طلب مني أن أختار بين عدَّة قصَّات!

أمامي فِي الصَّالون تليفزيون يبث برنامج للمذيعَة الْمشهورَة "بربارا والترز" يجلس أمامها رجل سمين وجهه يشع بالْحُمرَة تسأله:

أيمكن للبطل والناس تستقبله بالورود والعلامات الصفراء الدالة على الانتصار أن يعلن انسحابَه ويقرِّر التَّقاعد؟

لأني أعرف بأن الأمر لم يكن يحتاج لبطل! وبعد تحرير الْكويت، اشتقت للاهتمام بحديقَة منزلي، فالسن والتَّنبؤ بالقادم جعل الْقرار سهلا.

أسأل الْحلاق من هَذَا الرَّجل الرَّبعَة السمين؟ فيقول لي: إنه "شوارتز كوف" الأمريكي بطل حرب تحرير الْكويت.

لم يكن صلاح الدين الأيوبي، ولم يكن قطز، ولم يكن أحد من الْعرب؟! كانت كل قطرَة فِي دمي تطرق جدران عروقي مُؤْذِنة بأن كل شيء قد انتهى، التَّاريخ نفسه انتهى، الأحلام الَّتِي هِيَ فوق الْحيَاة قد انتهت!!.

أُنصِت حتَّى تتم الْحلاقَة..

والْموس اللامع يجزُّ شعري لِيُخلصني من "فوبيا- الْبقاء" كما كان نفس الْموس بمَكَّة يُخلصني من "فوبيا – الْعذاب".

بربارا: لماذا لم تتوجه إِلَى بغداد وتنتهي الْمهمَة للأبد !! .

شوارتز كوف: خيار قطع الطريق كله إِلَى بغداد لم يدرس قطُّ، ولم ينادِ به رئيس دولَة واحد، ولا دبلوماسي واحد، فقرارات هيئَة الأُمم الْمُتحدَة الَّتِي توفِّر لنا الأساس الْقانوني لعملياتنا الْعسكرية بالخليج كانت تصب فِي مقصد واحد: طرد الْقوَّة الْعسكرية الْعراقية من الْكويت – كُنَّا مخوَّلِين بكل الأعمال الضرورية فِي هَذَا الاتجاه.

بربارا: ولكن ما دام صدَّام حيًّا ومُمسكًا بزِمام السيطرَة فِي الْعراق فهذا يعني أن الْحرب لم تنته، والأمان فِي الخليج على كَفِّ عفريت؟! .

شوارتز كوف: إنني أَودُّ من كل قلبي شأنَ الْكثيرين لو أن صدَّامًا أُحيل إِلَى الْعدالَة لينال جزاءه بطريقَة ما، ولكن بدون تحرير الْكويت كان صدام سيسيطر على كل نفط الْمنطقَة، الْكويت ولربما نفط الْجزيرَة الْعربية.

بربارا: هيئَة الأمم سمحت لكم بشَنِّ هجمات داخل الْعراق، أَلَمْ يكن من الْمُمكن الْقبض على صدَّام؟ !.

شوارتز كوف: رغم ما نُشاهده فِي أفلام رامبو، فإن الْقبض على شخص مثل صدَّام ليس بالْمُهِم الهيِّن، ففي بَنَمَا وهي بلد صغير تنتشر فيه آلاف الْعيون الأمريكية لم نستطع أن نعثر على (نوربيجا) لوقت

كبير؟! وإني واثق أننا حتَّى لو قُمنا بغزو كامل للعراق فإننا لم نكن لِنَعثُر على صدَّام، فالعراق مُعَسكر مسلح كبير؟ !.

تنتهي الحِلاقَة، أنظر فِي المْرآة فأجد شبيه "لبول برينر" أشهر ممثل عالمي أقرع، أترك المْكان.

لم يبق إلا الهروب مَعَ زوجتي الحْسناء المْعدَّلَة بالشَّعر الأصفر الصِّناعي، تخرج من فرنسا بدون حجاب بفقه الضَّرُورَة ومنطق الْغُربَة؟.

لم يعُد صَدْر فرنسا موطني.. ولا أرض الهوى أرضي. مُستَحيل أن أبقى هُنَا فهنا يبكي على بعضي بعضي.

نهرب إلى بريطانيا فيما يُشبه رحلات النُّزهَة الْبحريَّة، عبر بحر المْانش. نخرج بأرواحنا فقط تاركين آمالنا يأكلها الخطر، تماما كما خرج المْصريون فِي حرب الْكويت!

لم ننس أنْ نضع مفتاح الأستوديو فِي مظروف بصندوق بريد الْفَرَنْسِية صاحبَة الْبيت.

أيُمْكن أن ننجح؟.

أيمْكن أن نجد مِتْراسا مُتاحًا للبهجَة؟ !.

مطابع الدار الهندسية
موبايل: ٠١٢٢٣٤٩٠١١ تليفاكس: ٢٩٧٠٣٧٦٦